12me Année No. 550

Lundi - 17 - 1 - 1944

بدل الاشتراك عن سنة
مصـ
٨٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٣٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٥٥٠ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٢ المحرم سنة ١٣٦٣ — الموافق ١٧ يناير سنة ١٩٤٤ » السنة الثانية عشرة

الفهـــرس

عبقرية الإسلام

عبقرية الإسلام[1] عنوان وضعته لكتاب اشتغلت بإعداده منذ اشتغل العالم بهذه الحرب. وكان الذى وجه فكرى إلى هذا الموضوع ما وقع فيه الناس كافة من هذا التفانى الذريع لأسباب لا يصعب حسمها على العقل الأصيل. وبداهة الرأى أن نرجع إلى ما شرع فاطر الأرض وواهب الحياة ومنزل الوحى، بعد أن عجز الذين لاولوه فى ملكه من دهاقين الحكم وأساطين العلم عن قسمة رزقه بين أشتات خلقه. وما كان لبشر سليم الفطرة ليرتاب

(١) عارضت بهذا الكتاب العتيد أمير النثر الفرنسى شاتبريان فى كتابه القيم الممتع « عبقرية المسيحية Le Génie du christianisme »

فى أن الذى بَرَأ الخلق على اختلاف فى القدرة والحيلة ، وأنشأ الغرائز على اتفاق فى الطمع والنيلة ، هو أعلم بما سينشأ فى كونه من تصادم القوى وتعارض الأهواء ؛ فلا جرم أن يكون شرعه دستوراً كاملاً تصلح عليه شؤون الفرد وأحوال الجماعة من كل جنس وفى كل عصر وعلى كل أرض

ولقد كانت إدامتى النظر والفكر مدى هذه السنين الأربع فى مصادر الإسلام الصافية مصداقاً لهذه الفكرة ؛ فإن غير الله لا يملك أن يضع فى الإسلام هذه الأسس والقواعد التى تضمن نظام العالم وسلامه مهما اختلفت الأحوال وتعاقبت الأجيال وتطاول الأبد . وهل كان — لولا وحى الله — فى مقدور رجل أمىّ نشأ ربيب اليُتم والعُدْم فى قرية جاهلة من قرى الحجاز الجديب أن يعلن فى أوائل القرن السابع حقوق الإنسان وحرياته ، وهى التى أعلنت بعضها بالأمس فرنسا نتيجة لتلك الثورة ، وتمنت بعضها اليوم أمريكا غاية لهذه الحرب ؟ !

***

عبقرية الإسلام هى ذلك الإشراق الإلٰهى الذى انبثق من غار حراء فكشف للرسول عن أطوار النفس البشرية فى طوايا الغيب فدعا دعوته الخالدة إلى تكريم الإنسان وتنظيم العمران وتعميم الخير وتحقيق السعادة ، من طريق التوحيد ، والمؤاخاة ، والمساواة ، والحرية ، والسلام . فالتوحيد سبيل القوة ، والمؤاخاة سبيل التعاون ، والمساواة سبيل العدل ، والحرية سبيل الكرامة ، والسلام سبيل الرخاء . وتلك هى الغايات التى ترجو الإنسانية بلوغها عن طريق العلم والمدنية فلا تتكشف أمانيها بعد طول السُّرى وفرط اللغوب إلا عن سحاب خُلَّب وسراب خادع

هذه المبادئ المثالية التى تضمنتها دعوة الإسلام معلومة من القرآن بالنصوص الصريحة ، فلا موضع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف . فالتوحيد ركن من أركان الدين وعنوان من عناوينه . وهو من الكلم الجوامع التى وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة . هو توحيد الله ، وتوحيد العقيدة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد اللغة ، وتوحيد الحكم ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الدين والدنيا . وشواهد التوحيد فى أشتات معانيه مذكورة فى كتاب الله لا يختلف فى مدلولها أحد

وفكرة الوحدة الإنسانية هى مزية الدعوة المحمدية على كل دعوة . وفى سبيلها صدّق الإسلام بكل دين أُنزل ، وبكل نبى أُرسل ، ودعا الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً إلى خطة واحدة وكلمة سواء . ثم وصل الدين بالدنيا ، وكانت اليهودية والنصرانية تفصل بينهما ؛ فالأولى كان همها الصفق والاجتراح ، والأخرى كان سبيلها الرهبانية والتنسك . ولكن الإسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسد ، فلا تعمل إلا بوحيه ، ولا تسير إلا بهديه . ثم آخى بين المؤمنين ليجتمعوا على صدق المودة ، ويتعاونوا على لأواء العيش ، فلا يبغى قوى ، ولا يبخل غنى ، ولا يظلم متسلط . بدأ ذلك بالتأليف بين الأوس والخزرج ، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ؛ ثم توثقت عرى الإخاء بين المجاهدين فى سبيل الله حتى صار المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وأصبح هؤلاء الإخوان القلال الضعاف فى بضع سنين أئمة للناس وورثة لكسرى وقيصر !

كذلك فى سبيل الوحدة الإنسانية والأخوة الإسلامية فرض الإسلام الزكاة ، وشرع الحج ، وأمر بالإحسان والبر ، ثم سوى بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم فى الحقوق والواجبات ، بمحو العصبية الوطنية ، وقتل النعرة الجنسية ، وجعْل التقدم والتكريم للتقوى ، فقال الرسول الكريم فى خطبة الوداع : « إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى »

فى هذه الأصول الإسلامية كما ترى أفضل ما فى الديمقراطية ، وأعدل ما فى الاشتراكية ، وأجمل ما فى المدنية . فهى حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ، وتقيم ما اعوج من نظام الدنيا . ولقد كانت كذلك يوم كان لحماتها دولة ولدعاتها صوت ولمعتقديها يقين . فلما دالت الدولة ، وخشع الصوت ، وأراب اليقين ، تمزق المسلمون قطعاناً فى فدافد الأرض لا مرعى يجود ، ولا راع يذود ، ولا حظيرة تؤوى . ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الإسلام فى رأى السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل ، فصموا عن دعائه ، وعموا عن ضيائه . فليت شعرى متى يُتاح لدعوة محمد من يجدد حبلها ، وينشر فضلها ، ويقول لأولئك الذين يحاولون أن يرفعوا قواعد العالم على أساس جديد : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم »

احمد حسن الزيات

الروحانية بين الأنبياء الثلاثة

للأستاذ عباس محمود العقاد

الأديان الثلاثة: الإسرائيلية والمسيحية والإسلام ، ظهرت كلها بين السلالات السامية وكان أنبياؤها جميعاً من الساميين

والإجماع منعقد على هذا بين المؤرخين كافة ، نفى انتساب موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام إلى هذه السلالة ، يشذ عنهم «فرويد» العالم النفسانى الإسرائيلى المشهور ، فهو ينسب موسى إلى الجنس المصرى القديم . وبعض الباحثين يقولون إن الجنس المصرى القديم منحدر من الأصول الأوربية

ويشذ عنهم فى أمر المسيح أولئك الدعاة الجرمانيون الذين يتسفون الأنساب لكل عظيم فيردونه إلى الأصل الجرمانى أو السلالة الآرية على التعميم . فهؤلاء الدعاة يزعمون أن صفات المسيح المتواترة أقرب إلى الملامح الآرية الشمالية ، وينظرون من جهة أخرى إلى الملامح الفكرية أو الأدبية فيزعمون أن الروحانية التى تظهر فى أقوال السيد المسيح أكبر وأرفع من طاقة «السلالة السامية» التى يحسبونها مقصورة على الماديات الملموسة والمطالب الأرضية القريبة

وكلا القولين — قول فرويد وقول الدعاة الجرمانيين — لا يؤيده دليل قاطع ولا يتعدى الأخذ بالظنون

فمن المستبعد أن يكون موسى مصرياً ثم تجتمع له زعامة الإسرائيليين من جميع القبائل والبطون فى الديار المصرية ؛ ومن السخف أن يكون المسيح «آريا» تطبيقاً لقاعدة يخترعها دعاة الجرمانية ، ثم يسندونها بالظنون ويعودون فيسندون الظنون بتلك القاعدة المخترعة

وعلى هذا يصح أن ينعقد الإجماع — كأصح ما انعقد فى مسألة من المسائل — على أن البيئة السامية هى البيئة التى ظهرت فيها الأديان الثلاثة ، وأن موسى وعيسى ومحمداً جميعاً من سلالات الساميين

ألهذه المزية الجنسية دلالة عامة ! وهل نشأت الأديان الكبرى الثلاثة بين أبناء الجنس السامى لسبب عنصرى يخص هذه السلالة ، أو لسبب نفسانى يرجع إلى طبيعة العقيدة الدينية ؟

تكلم فى ذلك المتكلمون فأثبتوا وأنكروا كما يحبون أو يكرهون . فمن قائل إن العقل السامي بفطرته مستعد للاعتقاد غير مستعد للتفكير أو الخلق الفنى والنظرات الفلسفية المجردة ؛ ومن قائل إن العقيدة الدينية نفسها طور من أطوار الزعامة العنصرية التي تطور فيها الساميون إلى مداها الأقصى ، قبل أن يخرج الآريون الشماليون من نظام القبيلة الأولى

ولا يتسع المقام للتقصى فى أقوال المثبتين والمنكرين ، فحسبنا أن نقف فى أول الطريق على بر الأمان ، فنقول إن العقائد الدينية ظهرت فى السلالات السامية يوم كانت تظهر فيهم جميع المعارف الكونية والنهضات الثقافية ، فلا محل لتخصيص الأديان هنا بالعنصر السامى أو اتخاذ هذه الخاصة دليلاً عنصرياً من تلك الأدلة الكثيرة التى تختلط بالعصبيات

كانت الدول الكبرى كلها قائمة فى الرقعة الغربية من القارة الآسيوية ، وهى الرقعة التى أقام فيها الساميون منذ مئات الأجيال . فشاعت المعارف الكونية من هذا الوطن القديم ، ولم ينحصر الأمر يومئذ فى ظهور العقائد دون غيرها من النهضات أو الفتوح فى عالم الروح

* * *

نحن لا ننكر الفوارق العنصرية ولا نستخف بآثارها فى اختلاف الأمزجة والأخلاق وتباين المشارب والميول ، ولكننا

لا تحب أن تعزو إلى الفوارق العنصرية إلا الذى يثبت ثبوتاً قوياً أنه راجع إليها . فلا نقول إن « العقائد » سليقة سامية إلا إذا تبين أن الآريين بمعزل عن العقائد ، وأن الساميين لا يمتازون بغيرها ، وأن المسألة محصورة فيهم على مدى العصور وليست مسألة عصر ومناسبة زمانية أو مكانية

كذلك نرجع إلى الروحانية بين الأديان الثلاثة فلا نجعل العنصرية حكما فيها قبل أن نستنفد العوامل الأخرى جميعاً ، وإن جاز أن يذكر الاستعداد العنصرى بين عوامـل شتى يحسب لها حسابها فى هذا الموضوع

فالذى يقال مثلاً إن السيد المسيح عليه السلام كان صاحب دعوة روحانية لا تشتغل بشئون الدنيا ولا بالمطالب العملية التى تحتاج إلى وضع النظم وفرض الشرائع ، وأن علة ذلك فى رأى بعض الباحثين أن المسيحية تشابه العقائد الآرية التى جعلت الدين للروح والضمير ولم تجعله لمطالب الجسد أو مطالب الحياة الاجتماعية والنظم السياسية

وهذا الذى يقع فيه الخلاف الكثير

فاهتمام السيد المسيح عليه السلام بالجانب الروحى من الدين لم يصرفه أولاً عن الجوانب الأخرى التى تناولتها سائر الأديان ، ولم يكن لفارق عنصرى بين الذين خوطبوا بالدعوة المسيحية والذين خوطبوا بالدعوة الإسلامية أو الدعوة الموسوية

واهتمام السيد المسيح بالجانب الروحى ليس معناه — من الوجهة الأخرى — أن هذا الجانب لم ينل حظه من الاهتمام فى دعوة محمد أو دعوة موسى عليهما السلام ؛ وإنما معناه أنه جانب من الجوانب الكثيرة التى عنى بها الإسلام خاصة ، وكان لهـا سهم فى العناية من وصايا الأنبياء الذين ظهروا فى بنى إسرائيل

وقبل أن نحصر الأمر فى علة « الاستعداد العنصرى » نعود إلى العلل المختلفة فنسأل : ألم تكن هنالك علل أخرى جعلت رسالة السيد المسيح أقرب إلى الروحانيات منها إلى العمليات والشئون الدنيوية ؟

فاذا سألنا هذا السؤال لم نستطع أن نقول إن السامية أو الآرية هما الحد الفاصل فى هذا الموضوع

فقد كانت هنـالك علل كثيرة خليقة أن تقصر الدعوة المسيحية الأولى على مواعظها الأخلاقيـة التى أوشكت أن تقتصر عليها

فمن تلك العلل أن بنى إسرائيل كانوا أصحاب شريعة دينية مفصلة فى شئون الحقوق والمعاملات قبل أن تتجه إليهم دعوة السيد المسيح ، وكانت آداب القائمين على تلك الشريعة هى موضع المهدة أو موضع الحاجة إلى الإصلاح ، فلا جرم تتجه إليهم الدعوة من هذه الناحية ولا تتجه من ناحية التشريع المفصل فى شئون الحكم وشئون المعيشة ، بل كان من قول السيد المسيح الصريح أنه لا ينقض الناموس ولـكنه يثبته ويزكيه

ومن تلك العلل أن السيد المسيح ظهر فى بلاد يحكمها الرومان ويتولى إدارتها أولئك القوم الذين اشتهروا بالنظم والشرائع وتبويب الأوامر والقوانين ، وما لم تـكن الدعوة المسيحية ثورة سياسية معززة بقوة الجند والسلاح فلا سبيل فى بدايتها إلى تفصيل الشرائع وانتزاع سلطان الحكم من أيدى القابضين عليه ، وإنما السبيل الأوحد أن تنصلح الأخلاق والضمائر بالعظة والهداية الروحية على السنة التى اختارها السيد المسيح ويختارها فى مكانه كل داع إلى دين جديد يتدرع إلى دعوته بالإقناع لا بالسلاح والصراع

فهذه العلة كافية لتعليل الصبغة الروحانية التى غلبت على المسيحية ، وإنها لأقرب إلى تعليلها من الرأى القائل باقتباس المسيحية من العقائد الهندية أو الآرية فى جملتها ، لأن هذا الرأى يلجئنا إلى إقامة فاصل بين ساميين وساميين ، ولا يبطل الاعتراض الذى يرد فى هـذا الصدد حين يسأل السائل : وماذا كانت الدعوة المسيحية صانعة إذا هى فرضت الشرائع بغير حكومة وبغير ثورة مسلحة وبغير موافقة من أصحاب الأمر بين الرومان أو بنى إسرائيل ؟

أما الإسلام فلم يكن معقولاً أن ينحصر فى المواعظ الروحانية

دون غيرها ، لأن العرب لم يدينوا بشريعة عامة مفصلة قبل الإسلام تغنيهم عن تشريع جديد ، ولأن الإسلام قد تولى الحكم كما تولى الهداية النفسية ، فلا مناص هنا من إقامة الحدود وبيان الحقوق وتقرير الحكم في كل شأن من شئون المعيشة تتولاه الحكومات

وكذلك موسى عليه السلام في قيادته للقبائل الإسرائيلية ، لأنه كان في مقام الزعيم الذي يسوس تلك القبائل بالشرائع المرعية في زمانه والشرائع التي اقتضاها خروجه من ديار مصر إلى ديار كان فيها لبني إسرائيل موطن قديم . فاهتم بتسجيل الشرائع المصرية والإسرائيلية والموسوية ، واهتم إلى جانب ذلك بمصالح قومه ، لأن العمل الأكبر الذي تصدى له إنما هو إنقاذ إخوانه في العنصر والعقيدة ، فهو عمل « وطني » مقدم في زمانه على الوصايا الإنسانية العامة التي تشمل الأمم كلها كما تشملها كل نصيحة أخلاقية أو موعظة روحية

وهذه العلة كافية أيضاً لتعليل الصبغة العملية التي غلبت على الدعوة الموسوية فأصبحت شيئاً غير المسيحية في الروحانية أو البشارة الإنسانيـة التي تخاطب جميع الأمم كما تخاطب بني إسرائيل . ولا حاجة في هذا المقام إلى التفريق بين ساميين وآريين ، أو التفريق بين طائفة من السلالة السامية وطائفة أخرى ، إذ لو كان موسى آرياً وكان أبناء إسرائيل آريين لما سلك غير مسلكه معهم في شئون التشريع والمصالح الوطنية أو المصالح العنصرية

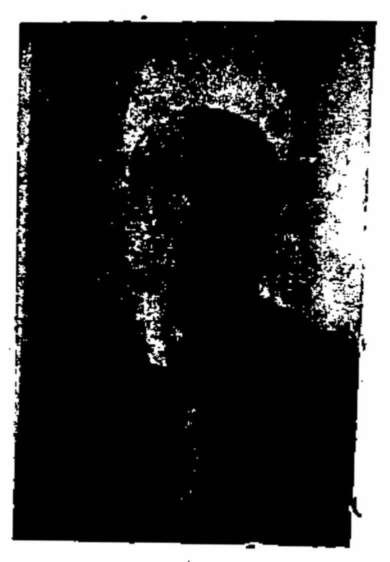
ونعود فنقول إننا لا ننكر الفوارق بين العناصر والأقوام ، ولكننا ننكر الفوارق التي يفرضها بعض الباحثين المتعسفين بغير دليل ولا قرينة راجحة ، ونحب أن تقيم البحث في أسرار العقائد وأسرار نجاحها في زمانها ومكانها على الملل الكونية التي جرى عليها نظام الوجود ، لأن الأسرار الإلهية التي توحي بها الأديان لن تناقض المعقول من سنن الكون وفطرة الأشياء .

عباس محمود العقاد

فقه عمر

للأستاذ محمود شلتوت

[عمر بن الخطاب هو أول من كتب التاريخ بالهجرة ، فأحيا بذلك مجدها ، وخلد على الزمان ذكرها ، فحق على الذين يحتفلون بهذا العيد أن يذكروا عمر]



للرسالة المحمدية جانبان : جانب التلقي عن الله رب العالمين ، وهو خاص بمحمد صلى الله عليه وسلم لا يشاركه فيه أحد من أمته ، وجانب الفهم والبيان ، والدعوة والإرشاد ، والعمل على توسيع نطاق الإسلام ومد رواقه ، وتنظيم الشئون بأحكامها ، وإلى هذا الجانب ترجع عزة الإسلام وبقاؤه على الدهر فتياً لا تزعزعه العواصف ولا تنال منه الأحداث . ويشارك الرسول من أمته في هذا الجانب من آتاه الله العلم والحكمة ، وقذف في قلبه النور والهداية ، وكشف له عن سر تشريعه ، وبصره بمواقع الأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، ووهبه غيرة تحمله على الجهاد في ذلك كله ، وعلى الصدق والإخلاص في هذا الجهاد !

وإذا كانت عزة الإسلام ترجع إلى الجانب الثاني ، وإلى قيمة ما يتصل به من جهود موفقة مخلصة صادرة عن الإيمان واليقين ، فإن من يقرأ سيرة عمر ، ويقف على جهاد عمر ، ويعرف مواقفه المجيدة أثناء خلافته وقبلها ، وأفكاره السديدة في حياة الرسول وبعدها ، يدرك بوضوح : لماذا كان عمر على رأس الذين أعز الله بهم شريعة الإسلام ، وركز أصوله ، وأرسى قواعده ، كما كان على رأس الذين أعلى بهم كلمته ، وأعز سلطانه ، ووسع ملكه ، ويدرك سر هذه الدعوة النبوية التي توجه بها محمد صلى الله عليه وسلم إلى ربه حين أنكره الناس ، وتألبوا عليه ، وتحالفوا على الكيد له ولرسالته : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك » وقد ضمن الله لنبيه إعزاز دينه ، ونصرة شريعته ، فأجاب دعوته وهدى أحب الرجلين إليه ، فكان إسلام عمر تنفيذاً للارادة الإلهية ، وتحقيقاً للدعوة النبوية ، وكان إعزازاً لدين الله برجل العزة والسلطان ، ونصراً لشريعة الله برجل الفهم والبيان !

* * *

لعمر رضي الله عنه نواح كثيرة : فهو رجل حرب وجلاد ، ورجل حكم وسلطان ، ورجل تقى وإيمان ، ورجل عدل ونصفة ، ورجل إشراق ونور ، ورجل فقه وقانون ، ولسنا بمستطيعين في مثل هذا المقال أن نلم بشواهد تلك النواحي من عظمة عمر ، فحسبنا أن نلم ببعض تلك الشواهد في ناحيته الفقهية التي هي أبرز نواحيه ، وأخص ميزاته ، فقد كان عمر في هذه الناحية نسيج وحده : شهد له بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفها فيه أصحابه رضي الله عنهم :

قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » وقال : « بينا أنا نائم أتيت بقدح من لبن حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب » قيل : فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : العلم !

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « إن عمر كان أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا في دين الله » « ولو أن علم عمر وضع في كفة ميزان ، ووضع علم أحياء الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم . ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم ! »

وقد سئلت عنه عائشة فقالت : « كان والله أحوذياً نسيج وحده »

* * *

لم يكن فقه عمر من هذا النوع الذي أودعه الناس بطون الكتب . لم يكن من هذا النوع الذي تجلت فيه روح العصبية الحادة ، ولوثه الاتجاهات الطائفية ، والنزعات المذهبية ، لم يكن

من هذا النوع الذى جافى الحياة الواقعية فى كثير من صوره ومسائله ، ولا من النوع الغامض الذى التوت مسالكه ، وتعقدت أساليبه ، فصار بعيد المنال على من يريده أو يلتمس الانتفاع به من غير أهله . لم يكن من هذه الأنواع التى زعم الناس أنها فقه ، بل التى اغتصبوا لهـا كلمة الفقه لتدل عليها ، وإنما كان فقهاً ناصعاً واضحاً صافياً تستريح إليه النفوس ، وتطمئن إليه القلوب ، وتقضى به روح هذه الشريعة السمحة !

إن الفقه هو الفهم والفطنة والإدراك لـما يريده الله تحقيقاً لمصالح عباده ، وتنظيماً لشئونهم ، وتيسيراً عليهم ، وإسعاداً لهم برغد العيش وطيبات الحياة

هذا هو الفقه ، وهذا هو فقه عمر !

كان أساس الفقه عنده هو المصلحة ، يقدرها قلب امتلأ بالإيمان والإخلاص ، ويزنها عقل راجح منصف لا يميل به الهوى ، ولا يفسده الغرض ؛ ذلك بأنه رأى الكتاب الكريم يعلل الأحكام بالمصالح ، ويربط بينهما وجوداً وعدماً ، وبقاء وانتهاء ، وأدرك ذلك فى جميع تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم

وقد ظهرت آثار هذا الفقه من عمر فى صنفين من الحوادث :

أحدهما : الحوادث التى كانت تنزل بالناس وليس فيها وحى يتبع ، فيقول الناس فيها ويقول عمر ، فينزل القرآن على نحو ما قال ، فكأنما ألهم به إلهاماً ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدَّثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر »

وقد ذكر العلماء الوقائع التى وافق فيها الوحى رأى عمر ، وأوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين ، نذكر منها على سبيل المثال والتطبيق رأيه فى أسرى بدر ، ورأيه فى الحجاب ، ورأيه فى الصلاة على من مات من المنافقين .

فأما رأيه فى أسرى بدر فإنه لما تم النصر للمسلمين فى هـذه الغزوة ، ووقع كثير من المشركين أسرى فى أيديهم ، عرض النبى صلى الله عليه وسلم أمرهم على أصحابه ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار وعسى الله أن يهديهم للاسلام . وقال عمر : لا والله يا رسول الله ! ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننا منهم فنضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين ، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة » ثم ضرب إبراهيم وعيسى مثلاً لأبى بكر ، وضرب نوحاً وموسى مثلاً لعمر ، وأخذ برأى أبى بكر فحكم بالفداء ، فأنزل الله قوله : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »

فقررت الآية رأى عمر ، ونعت عليهم فكرة الفداء مبينة أن سنة الأنبياء الداعين إلى الله ، المنشئين للأمم ، ألا يأخذوا الأسرى طلباً للفداء إلا بعد أن يكونوا قد أثخنوا فى الأرض ، وظهرت لهم القوة والغلبة على أعدائهم ، وتمكنوا من إبادة جراثيم الشر والعدوان التى من شأنها أن تقف دون نجاح الدعوة وتكوين الدولة . ولا ريب أن هذا هو الفقه الذى رمى إليه عمر بقوله « إن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها » وإنه لخير للمجاهدين قبل أن يتمكنوا من خصومهم أن تجرد نفوسهم من كل غرض مادى ، وأن تملأ قلوبهم بالروح المعنوية التى تحملهم على بذل النفس والتضحية بها فى سبيل الله ابتغاء لـما عنده وإيثاراً لعقبى الدار

ولذلك نهى عن الفداء أولاً ، ثم شرع أخيراً بعد أن استقرت دولة المسلمين ، وقويت شوكتهم

وأما رأيه فى الحجاب فأنه يؤخذ من كثير من الروايات أن عمر كان شديد التطلع إلى أن يحتجب نساء النبى صلى الله عليه وسلم تمييزاً لهن عن سائر النساء ، وحفظاً لجلال الرسالة وتوفيراً للهدوء النفسى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وإبعاداً لأسباب الأذى عنه ، فكان يقول : « لو كنت أطاع فيكن لما رأتكن عين » ويقول « يا رسول الله : لو اتخذت حجاباً ، فإن نساءك لسن كسائر النساء »

فنزل القرآن فى ذلك تقريراً لـما أشار به عمر ، وتأييداً لفقهه الذى بنى عليـه « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء » « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »

« إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق » « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب »

وأما الصلاة على من مات منافقاً ، فقد روى كثير من المحدثين عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : « لما توفى عبد الله بن أبي دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فلما أراد الصلاة قلت : أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ، ورسول الله يبتسم ، حتى إذ أكثرت قال : يا عمر أخر عنى إنى قد خيرت ، ثم صلى عليه ومشى حتى قام على قبره ، قال عمر فعجبت لى ولجرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزل « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » ، فقد وجهت الآية منع الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم بمثل ما وجه به عمر رأيه : قالت « إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » وقال عمر « أتصلى على عدو الله القائل كذا وكذا ؟ »

والصنف الثانى من الحوادث التى تجلى فيها فقه عمر ، هو الحوادث التى عرف فيها حكم ، واتخذت صورة عملية بين المسلمين ، وقد كان عمر يغلب فى هذا الجانب أيضاً روح الشريعة وعدالتها وتقديرها للمصالح على الصور التى عرفها الناس من قبل ، وكما حفظ له العلماء موافقاته حفظوا له كثيراً من هذه المسائل التى كان له فيها رأى غير ما كان معروفاً ، واتخذ رأيه صورة عملية أقرها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقة منهم بفقهه وعدالته ، وأنه لم يحد قيد شعرة عن الحق

وحسبنا اليوم لضيق المجال أن نشير إلى رأيه فى المؤلفة قلوبهم ، وفى صلاة التراويح ، وفى الطلاق الثلاث بكلمة واحدة وفى توزيع العطاء ، وفى الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة ، وفى متعة الحج ومتعة النكاح ، وفى حد شارب الخمر ، وفى السرقة عام المجاعة ، وفى قتل الجماعة بالواحد ، ونحو ذلك من المسائل التى تدل على أن عمر كان فقيهاً بروحه وطبعه ، وعلى أن فقهه كان مبنياً على إدراك المصالح التى انبنى عليها التشريع ، وأرشد إليها القرآن الكريم ، حيث يقول « والله يعلم المفسد من المصلح » « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة » إلى غير ذلك من الآيات

أما بعد : فإذا كان هذا المبدأ قد عمل به عمر ، ونزل به الكتاب ، وأيده الرسول ورضى به الأصحاب ، فجدير بالعلماء أن يجعلوه مبدأهم ، وأن يبنوا عليه فقههم ؛ فذلك أجدى عليهم وأدعى إلى أن يتقبله الناس عنهم ، وأقوى أن يدفعوا به فى صدور أعداء الفقه الإسلامى ، وأجمع لكلمة المسلمين ، وأنفى لهذا التفرق المذهبى الذى جعلنا شيعاً وأحزاباً ونزع هيبتنا من صدور أعدائنا . أسأل الله الكريم أن يهدينا إلى الصواب ، ويبصرنا بالرشاد ، ويجمع على الحق كلمتنا إنه سميع مجيب .

محمود شلتوت

عظة العيد وعبرة الذكرى

لصاحب العزة الأستاذ أنطون الجميل بك



إذا كانت «الهجرة النبوية» من «مكة» إلى «يثرب» قطب الدائرة في انتشار الرسالة المحمدية واستطارة الدعوة إليها من الشرق إلى الغرب في حقبة قصيرة من الزمن، فإنها إلى جانب هذا حادثة من أعظم حوادث التاريخ وأبلغها أثراً في تغيير اتجاهات الإنسانية. وقد صار يوم الهجرة أو التاريخ الهجري بداية تاريخ جديد إلى جانب تاريخ الخليقة والتاريخ الميلادي. فلا بدع أن ينصرف الباحثون والمنقبون من جميع الأمم منذ ثلاثة عشر قرناً، إلى درس ذلك اليوم التاريخي، فيتناولوا بالبحث والتحليل ما سبقه من المقدمات، وما صاحبه من الحوادث، وما أعقبه من النتائج، حتى أنه ليخيل أنه لم يبق من زيادة لمستزيد.

ولكن الحوادث الكبرى في تاريخ البشرية كنزُ عبر لا يفنى، ومعين فوائد لا ينضب، يرجع المرء إليها كلما تعقدت حوادث حاضره، والتبس عليه مصيره في مستقبله.

والشرق اليوم، في صبره على الحاضر وانتظاره المستقبل، أحوج ما يكون إلى استخلاص الفوائد والعبر من عظائم الحوادث الغابرة. والإنسان أمام المستقبل المجهول يبحث في الماضي عن قبس ينير له الطريق: فالسياسي يعود إلى السوابق، والقانوني يرجع إلى العرف والتقاليد، والاجتماعي يذهب منقباً في ثنايا التاريخ.

أما العبرة التي نحتاج إليها من هذه الذكرى في حاضرنا فهي ما اكتنف الهجرة من اضطهاد؛ وأما الفائدة التي ينبغي أن نستخلصها لمستقبلنا فهي ما قضت به على ذلك المهاجر القدام من تضحية. فنفهم حينئذ حق الفهم أن كل دعوة تقوم على يقين صادق وإيمان راسخ لا يستطيع أحد أن ينال منها. فهي كالحرية: كل ما يصنع ضدها يعود بالخير عليها. والإرادة الثابتة لا غالب لها، فهي تتخذ من كل ما يقوم في وجهها من العقبات درجات ترتقيها إلى هدفها الأسمى.

فالالتجاء إلى الهجرة انتهى بتآلف المهاجرين والأنصار، والعودة إلى الديار تحت رايات الانتصار

والاضطرار إلى الاختباء في ظلمات (الغار)، مهد الظهور في وضح النهار

ومن السكون الموحش الذي خيم في تلك الليلة الليلاء، انطلق ذلك الصوت المدوي في جميع الأرجاء.

كل فكرة لا تضطهد لا تعيش. وكل دعوة لا تقاوَم لا تقوم على أساس. وكل صاحب رسالة لا يضحي في سبيلها بأعز ما لديه يفشل وينكص على الأعقاب.

تاريخ الأنبياء والرسل شاهدٌ على ما نقول. بل هذا تاريخ أبطال العالم وعظمائه يدلّ من الوجهة الإنسانية البحتة على أن الفكرة الكبيرة تحتاج إلى مقاومة، وإلى اضطهاد، وإلى تضحية، لترسخ وتقوى وتنتشر، كالشجرة تعمل فيها الفأس قطعاً فتزداد نمواً، أو كالأرض لا تخرج أحشاؤها خيراتها إلا إذا ذهب المحراث فيها شقاً.

وفي الشرق اليوم «فكرةٌ» تجتمع حولها أماني الأفراد، وتتلاقى نزعات الجماعات ـ في السياسة وفي الاقتصاد وفي الثقافة. وإذا كان المقام لا يتسع للتفصيل، وإذا كانت صبغة هذه

بركه خان

أول مسلم من ملوك التتار

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —



انقسمت مملكة جنكيزخان بين بنيه الأربعة: جوجي وجغتاي وأوكتاي وتولوى، وذرياتهم. تسلط تولوى أصغر أبنائه على منغولستان الشرقية، فورث ملك أبيه في مملكته الأصلية.

وكان من أولاده الذين فتحوا إيران والعراق، وأزالوا الخلافة العباسية من بغداد. وتولى أوكتاي على جونغاريا في أواسط آسيا. وملك جغتاي فيما وراء النهر. وحكم بنو جوجي وهو أكبر بني جنكيز في صحراء القفجاق (دَشت قبجاق) وما يجاورها.

— ٢ —

وكان جنكيز أعطى ابنه الأكبر جوجي الأرض التي شمالي نهر سيحون حيث قامت من قبل مملكة قراختاى، ولكن جوجي سار صوب الغرب فاتحاً ثم خالف على أبيه، ومات في حياة والده، فورث ملكه ابنه الأكبر أوردا

وكان لجوجي أربعة أبناء آخرين: باتو وتوقاتيمور وشيبان ونوغاى، تولوا هم وذرياتهم الملك في شرقي أوربا، صحراء القفجاق وما يتصل بهما كما تقدم، وقد دام الملك في شعبة منهم حكمت في القريم حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجرى (١٧٨٣ م). وفي شعبة أخرى ملكت في بخارى وخيوه إلى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى)

وكان أعظمهم شأناً وأوسعهم سلطاناً باتو وذريته؛ ودام الملك لهم زهاء قرن ونصف (٦٢١ – ٧٦٠ ق)[1]. وكانت دار ملكهم مدينة سراى على نهر إتل (نهر الفُلجا)

— ٣ —

توفي باتو سنة ٦٥٣ فخلفه ابنه سرتاق سنة واحدة، ثم تولى بركة (بركاى) عشر سنين بين سنتى ٦٥٤ و ٦٦٤

بركاى حفيد جنكيز وسليل هؤلاء المغول الذين دمروا الحضارة الإسلامية، دخل في أخوَّة الإسلام، وصار من بناة الحضارة الإسلامية، وحماة علمائها، فلم يعرف بعد باسم بركاى، ولكنه صار «أبا المعالى ناصر الدين بركة خان»، وحالف المسلمين ولا سيما ملوك مصر على ابن عمه هلاكو ليرد عدوانه عن المسلمين، ويكف يده عن تدمير حضارتهم.

كان إسلامه من بركات الشيخ نجم الدين كُبرَى الصوفي المعروف؛ فقد بث دعاته في الأقطار للدعوة إلى الإسلام. وكان من تلاميذه الشيخ سيف الدين الباخرزى فأرسله إلى بخارى وأرسل سيفُ الدين أحد تلاميذه إلى بركاى فدعاه إلى الإسلام، وبيّن له عقائده وشرائعه، فاستجاب له وأسلم، ثم ذهب إلى الشيخ الباخرزى، فأكرمه وأجلّه وجدّد إسلامه ورجع إلى دار ملكه يدعو إلى الإسلام، ويعظم شعائره، ويبر علماءه، فأسلمت زوجه ججك خاتون واتخذت مسجداً من الخيام يحمل معها إن سارت

(١) من أشق الأبحاث التاريخية تأريخ دول المغول وتعيين أزمنتها ومواطنها.

الصحيفة الغراء لا تسمح بالتصريح، فإننا لا نتعدى النطاق المرسوم إذا قلنا إن هذه «الفكرة» تلاقى مقاومة من أهوائنا وغاياتنا المتنازعة في الداخل، ومن المطامع والمصالح المتضاربة في الخارج. وهذه المقاومة نفسها كفيلة بتحقيق هذه الفكرة في يوم يقاس قربه أو بعده بمقياس استعدادنا للتضحية في سبيلها.

فيارجال السياسة والاقتصاد، ويارجال القانون والاجتماع، أيها المهيمنون على مقدرات هذا الشرق، المسؤولون عن مصايره، اتخذوا اليوم من ذكرى هذا الحادث التاريخي العظيم – التي يحتفل بها مئات الملايين من المسلمين ويشاركهم فيها مواطنوهم من سائر المذاهب – اتخذوا لنا ولكم من هذه الذكرى عظة، ومن هذا العيد عبرة!

أنطون الجميل

وكاتب ناصر الدين بركة الخليفة المستعصم وبايعه وأرسل إليه الهدايا. يقول ابن عربشاه وهو عليم بأحوال بركة وأمور مملكته: أقام في مدينة سراى دار الملك سنين وتزوج بها وولد له فيها أولاد:

« ولما تشرف بركة خان بخلعة الإسلام، ورفع في أطراف الدشت[1] للدين الحنيفي الأعلام، استدعى العلماء من الأطراف والمشايخ من الآفاق والأكناف، ليوقفوا الناس على معالم دينهم، ويبصروهم بطريق توحيدهم ويقينهم. وبذل على ذلك الرغبات، وأفاض على الوافدين منهم بحار الهبات، وأقام حرمة العلم والعلماء، وعظم شعائر الله وشعائر الأنبياء. وكان عنده في ذلك الزمان وعند أوزبك خان بعده وجاني بك خان، مولانا قطب الدين العلامة الرازي، والشيخ سعد الدين التفتازاني، والشيخ جلال الدين شارح الحاجبية، وغيرهم من الفضلاء الحنفية والشافعية، ثم من بعدهم مولانا حافظ الدين البزازي ومولانا أحمد الخجندي رحمهم الله تعالى. فصارت سراى بواسطة هؤلاء السادات، مجمع العلم ومعدن السعادات، واجتمع فيها من العلماء والفضلاء، والأدباء والظرفاء، ومن كل صاحب فضيلة، وخصلة نبيلة جميلة ما لم يجتمع في سواها، ولا في جامع مصر ولا قراها »

ويقول ابن بطوطة عن مدينة سراى: « وفيها ثلاثة عشر مسجداً لإقامة الجمعة أحدها للشافعية. وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جداً. »

أسلم بركة فشملته أخوة الإسلام الجامعة، وهدته سنته الرشيدة، وتبنته الحضارة العظيمة التي اجتمعت عليها عقول المسلمين وأيديهم منذ قرون. وتقطعت الأسباب بينه وبين قرابته من المغول، وانفصمت بينه وبينهم الأواصر، ووقعت العداوة بينه وبين ابن عمه هولاكو، وثارت الحرب بينهما. فأمر بركة جنده الذين كانوا في جيوش ابن عمه أن يخذلوه ويرجعوا فإن لم يستطيعوا فليتوجهوا تلقاء الشام ومصر ليعينوا الملك الظاهر بيبرس على هلاكو. فانظر إلى أمراء المغول الذين شاركوا في تدمير البلاد الإسلامية، وقاتلوا المصريين في عين جالوت وغيرها، يقودهم الإسلام إلى مصر نجدة للمسلمين على حرب هلاكو وأشياعه

بلغ أمراء بركة دمشق في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ستين وستمائة، وهم زهاء مائة معهم نساؤهم وأولادهم، وأخبروا بانتصار بركة على هلاكو فشاعت البشرى في الشام ومصر، وسر الملك الظاهر بقدومهم، وكتب إلى نوابه في الشام فأكرموا وفادتهم وأرسل إليهم الأقوات والخلع. ثم ساروا إلى مصر، فبلغوا القاهرة يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة، وخرج السلطان للقائهم يوم السبت، وخرج أهل القاهرة والفسطاط لرؤيتهم، واحتفوا بهم حفاوة عظيمة، وأنزلوا في دور بنيت لهم في اللوق، وأرسل إليهم السلطان الأموال والخيل والخلع ولعب معهم الكرة وأمر أكابرهم على مائة فارس. وأسلموا وحسن إسلامهم. ولما بلغ التتار ما نال هؤلاء من الكرامة في مصر وفدوا جماعة بعد أخرى. وقدم البريد من حلب في ذي القعدة سنة إحدى وستين بأن جماعة من التتار تزيد عدتهم على الألف ومعهم ثلاثمائة فارس من المغل قادمون إلى مصر؛ فأمر السلطان بالحفاوة بهم، ثم استقبلهم حين قدموا كما استقبل إخوانهم من قبل ولحقت بهؤلاء جماعات أخر

وتوالت الرسائل بين الملك الظاهر بيبرس وبين الملك بركة خان وحرضه الظاهر على جهاد هلاكو ومحاربة التتار ولو كانوا أهله « فإن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل عشيرته الأقربين وجاهد قريشاً، وليس الإسلام قولاً باللسان، والجهاد أحد ما له من الأركان »

كذلك سبق بنو باتو إلى الإسلام وشرع الدين الحنيف يفتح قلوب التتار، ويدخلهم في إخوته وينظمهم في جماعته ويطبعهم بحضارته. وهزم بالدعوة الظافرين بالسيف، وغلب في السلم الغالبين في الحرب، ولم تستعص قسوة التتار على هدى الإسلام، ولا كبرياؤهم على عزته، ولا عداوتهم على مودته، ولا إفسادهم على إصلاحه، ولا تخريبهم على تعميره. وإنها لآية من آيات هذا الدين، وحجة على من زعم أن الناس دخلوا في الإسلام كارهين

(للكلام صلة) **عبد الوهاب عزام**

---

(١) يعني دشت قبجاق « صحراء القفجاق »

هزيمة الشيطان

للأستاذ علي محمود طه



ألاَ ما لهذا الليلِ تَدْجَى جوانبُهْ
على شَفَقٍ دامٍ تَلَظَّى ذوائبُهْ ! ؟

وما ذلك الظلُّ المَخُوفُ بأُفْقِهِ
يُطِلُّ فترتدُّ ارتياعاً كواكبُهْ ! ؟

أأيتها الأرضُ انظرى ، وَيْلَكِ اوأسمعى !
توثَّبَ فيك الشرُّ حُمْراً مخالبُهْ

أرى فتنةً حمراء يلفظُها الثَّرَى
دُخاناً تُغَشِّى الكائناتِ سحائبُهْ

وأشتَمُّ من أنفاسها حَرَّ هَبْوَةٍ
كأنَّ هجيرَ الصيف يلفحُ حاصبُهْ

أرى قبضةَ الشيطان تستلُّ صارماً
توَهَّجُ شوقاً للدماء مضاربُهْ

تسلَّلَ يبغى مَقْتَلاً من « محمدٍ »
لقد خُيِّبَ الباغى وخابت مآربُهْ

تقدَّمْ سليلَ النار ! ما الباب مُوصَدٌ !
فماذا توقَّاهُ ، وماذا تُجانِبُهْ ؟

تأمَّلْ ! فهل إلاَّ فتًى فى فراشه
إلى النور تهفو فى الظلام ترائبُهْ ! ؟

يسائلك الأشياعُ زاغتْ عيونهم
وأنت حسيرٌ ضائعُ اللُّبِّ ذاهبُهْ :

ترانا غَفَوْنا أم تُرَى عَبَرَتْ بنا
نُفاثةُ سِحْرٍ خدَّرتْنا غرائبُهْ ! ؟

وما زال منا كلُّ أشْوَسَ قابضاً
على سيفِهِ لم تَخْلُ منه رواجبه

ترَى كيف لم تُبْصِرْ غريمك سارياً
وأين تُرَى يمضى ؟ وتمضى ركائبُهْ ؟

تقدَّمْ ، وجُسْ فى الدار وَهْناً ؟ فما تَرَى ؟
لقد هجر الدارَ النبيُّ وصاحبُهْ ! !

يحثّان فى البيداء راحلتَيْهما
إلى جبلٍ يُؤوى الحقيقةَ جانبُهْ

فقف وتنظَّرْ حائراً نَصْبَ غارِهِ
تحدَّاكَ فيه وُرْقُهُ وعناكبُهْ

لتعلمَ أن الحق رُوحٌ وفكرةٌ
يذلُّ لها الطاغى وتعنو قواضبُهْ

فطِرْ أيها الشيطانُ ناراً أو أنطلق
دُخاناً ، فأخسر بالذى أنت كاسبُهْ !

خسِئتَ ! ولو لم يَعْصِمِ الحقَّ ربُّه
طوى الأرضَ ليلٌ ما تزول غياهبُهْ

الطريقة المثلى
في دراسة الفقه الإسلامي

للأستاذ محمد محمد المدني

كلما أقبل عيد من أعياد الإسلام أو أظل الناس موسم من مواسمه ، ذكرت الفقه الإسلامي فجعلت الحديث عنه هديتي إلى العيد، واحتفالي بالموسم ، ذلك بأني رأيت الكفاح في هذا العالم مهما تنوعت أشكاله ، وتعددت صوره إنما يبدأ من الفكرة : لكل أمة في الحياة شرعة ومنهاج ، وكل أمة تكافح لتسمو فكرتها ، ويسود منهاجها ، وهذا الفقه هو برنامج الإسلام العملي لهذه الحياة ، فهو فكرتنا ومنهاجنا ، ويجب أن يبتدئ منه كفاحنا ، وأن يعتمد عليه جهادنا ، وأن تصدر عنه جميع دعوات الإصلاح والتقدم فينا

يجب أن نستقبل هذا الفقه بعناية ، وأن نديم النظر فيه ، والتأمل في أصوله ومصادره ، وأن نخلصه من الشوائب، ونلائم بينه وبين العصر الذي نعيش فيه

يجب أن ندرسه دراسة جيدة تكون الغاية منها تخريج أعلام أئمة ذوي بصر وإدراك وملكات فقهية يرجع إليها في المشكلات ، وينتفع بها في المعضلات

***

الفقه نوعان : فقه الفروع ، وفقه الأصول ، ولكل منهما كتب تهتم به ، وتبحث فيه ، ولكن النوع الأول قد فاز بالحظ الأوفر فعكف عليه الناس ، وأمعنوا فيه بحثاً ودرساً ، واختصاراً وشرحاً ، بينما ظل النوع الثاني مهملاً ، وظلت كتبه في زوايا المكتبة الإسلامية لا يكاد يشعر بها أحد

والسر في هذا الاهتمام بالنوع الأول ، وفي هذا الإهمال للنوع الثاني ، يرجع إلى الفكرة القائلة : بأن باب الاجتهاد قد أغلق ، وأن عهد المجتهدين قد انقضى فلن يعود . هذه الفكرة هي أصل الداء في كل ما أصاب الفقه الإسلامي ، مما أوقف نموه ، وأظهره بمظهر الجمود والتخلف ظلماً وزوراً . راجت هذه الفكرة بين أهل العلم فصرفتهم عن فقه الأصول إلى فقه الفروع ، فقصروا هممهم على نوع معين من الكتب ، ولم يكتفوا بأن يمنحوا هذه الكتب تقديرهم واعترافهم ، وأحياناً تقديسهم حتى ساروا في دراسة الفقه على طريقتها شبراً بشبر وذراعاً بذراع : فالفقه في هذه الكتب أبواب بعضها في المعاملات وبعضها في العبادات ، وكل باب من هذه الأبواب هو في جملته وتفصيله مجموعة من الأحكام الفرعية تجمعها رابطة واحدة هي أنها أحكام الصلاة أو أحكام الزكاة أو البيع أو نحو ذلك ، ولهذا تعد هذه الكتب سجلاً واعياً لكثير من الفروع الفقهية التي تكونت بمرور الزمن من فتاوى المفتين واجتهاد المجتهدين وأحكام القضاة ونحو ذلك ، وكثيراً ما تجد فيها أحكاماً هي وليدة الفرض والتقدير لا وليدة الحس والوقوع والمولعون بهذه الكتب يسيرون على نمطها لا يعدونه ، ولا يسمحون لأنفسهم بالانحراف عنه ، بل إنهم ليضعون مناهجهم الدراسية على أساس فهارس الكتب ، وربما نقلوها نقلاً حرفياً إلى هذه المناهج !

وليتهم يتمون قراءة هذه الكتب ، أو يقطعون في دراستها شوطاً بعيداً ، ولكنهم يكتفون منها بالقليل الذي لا يعد تحصيلاً وجماً ولا يحسب درساً وفحصاً

***

ليست هذه الطريقة في نظر المنصفين دراسة للفقه ، ولو عكف عليها إنسان مدى عمره لما كان — إن نجح فيها — إلا محصلاً للفروع ، جامعاً لكثير من صور المسائل الجزئية وليس هذا هو الفقيه الذي نبتغيه !

إن هذه الطريقة تقضي على الفقه بالركود والجمود ، وتقضي على روح التفكير والإنتاج العلمي ، ولا تثير في نفس الباحث شعوراً باللذة الفكرية ، ولا تغريه بالاسترسال مع البحث وتذليل صعابه ، وهي تعثر السبيل على الذين يريدون مجاراة التقدم العلمي والعملي في هذا العصر ، ويدعون إلى تيسير وسائل الانتفاع بالفقه الإسلامي

نحن ندعو إلى العمل بالشريعة الإسلامية وجعلها أساساً للقانون والتشريع ، فكيف نقدم هذا الفقه لرجال القانون الذين ألفوا النظام والترتيب والمبادئ الواضحة ؟ كيف نقدمه لهم في هذا الثوب المهلهل ، في هذه الكتب المضطربة ، في هذه المسائل المبعثرة ؟ بل كيف نقدم للمحاكم قاضياً ليس عنده روح الفقيه المتصرف المرن البصير بمبادئ التشريع وأصول الأحكام ؟

إن هذه الطريقة تفرض علينا عناية بعرف المتقدمين ، وعادات السابقين لا تحظى بمثلها عاداتنا وأحوالنا وما جد من نظمنا ووسائل حياتنا : نحن نعرف جيداً من هذه الكتب أحكام النقد الإسلامي فيما يتصل بشركات العنان وشركات الوجوه وشركات المضاربة ، ولا نعرف شركات التضامن ، ولا شركات التوصية ولا الشركات المساهمة ! إننا نعرف أحكام الفقهاء على المزابنة والمراطلة ، وبيع الفضة بالفضة والذهب بالذهب والدراهم الناقصة بالدراهم الكاملة والمغشوشة بالصحيحة ولا نعرف معرفة شافية حكم أوراق « البنكنوت » ، ولا نظام القرض المضمون ، ولا كيف تغطى أوراق النقد ، ولا كيف يتم البيع والشراء في أسواق الأوراق ، ولا ما هو نظام القطع ونحو ذلك !

ونحن نقول أن شركات التأمين على الحياة أو على المصانع والمتاجر تتعامل مع الناس تعاملاً محرماً مع أننا لا نعرف التفاصيل الكافية لتكوين الحكم الصحيح على هذا النوع من التعامل بالحل أو الحرمة !

ونحن نقول : إن قضاة المحاكم الأهلية لا يحكمون بما أنزل الله حين يقضون على هذا بالسجن ويقضون على هذا بالغرامة ، ويحكمون على بعض الأموال بالمصادرة ... الخ ولعلنا لو تأملنا أحكامهم لوجدناها غير متعارضة مع الشريعة ، ولا مختلفة مع المبادئ الفقهية السليمة !

ونحن نشغل أنفسنا ونضيع أوقاتنا في الفروض الفقهية التي لم تقع ، فنبحث عن الحكم « فيما لو غربت الشمس ، ثم عادت هل يعود الوقت أو لا يعود » وفيما « لو أحيا الله ميتاً بعد موته وتقسيم تركته ، فهل له أن يأخذ ما بقي من ماله في أيدي ورثته »[1] وفيما « لو تزوج شرقي بمغربية ولم يدخل بها وبينهما مسيرة عام وجاءت بولد لستة أشهر من وقت العقد ، فإنه يكون من الزوج لولاية أو استخدام »[2]

نحن نشغل أنفسنا بمثل ذلك ، بينما رجال القانون والتشريع في البلاد وعلى رأسهم معالي وزير العدل يطلبون إلى كل مشتغل بالفقه والتشريع في حفل عام أن يدلي برأيه في مشروع تنقيح القانون المدني ، ويتحدى خطيبهم من يدله على حكم فيه أو مادة تتعارض مع الشريعة الإسلامية ، فلا يغرينا ذلك ببحثه ولا النظر فيه مع أنناـ رجال البحث والنظر والنقاش والجدال

* * *

إن الفقه الذي ينبغي أن يعكف عليه أهل العلم ويشتغلوا بخدمته ودراسته ، ولا سيما في أقسام الدراسات العليا هو فقه الأصول لا فقه الفروع ، ولست أقصد بالأصول هذا النوع من البحوث التي ترجع إلى معرفة الأدلة وكيفية الاستفادة منها وأحوال الألفاظ من حيث ما يعرض لها من النسخ والتعارض والترجيح ... الخ . ولكني أريد معرفة القواعد الكلية المشتملة على أسرار الشريعة وحكمها ، أريد النظر في المبادئ العامة ، ودراسة النظريات الفقهية الجامعة التي تتفرع عنها أحكام الجزئيات في شتى نواحي الحياة ، كأن ينظر الباحث في « قاعدة الملكية » مثلاً فيدرسها درساً وافياً ، ويعرف ما يتصل بها من التصرفات ، وما هو اتجاه الشريعة في شأنها ، ومن الذي يثبت له هذا الحق ، وما مدى حرية المالك في تصرفه ، وهكذا يتتبع آثارها ، ويسجل فروقها ، ويعرف آراء العلماء وأصحاب المذاهب فيها معرفة البصير الناقد المتخير الذي يعرف ما يعرف وينكر

(١) هذا الفرع والذي قبله في شرح الدر حاشية ابن عابدين ج ١ ص ٣٠٢

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٤٧

ذكرى الهجرة

للأستاذ محمد فريد وجدى



إننا إن ذكرنا هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى يثرب في العام الثالث عشر من الرسالة المحمدية ، وجب علينا أن نذكر أنها كما كانت فاتحة عهد جديد للدعوة الإسلامية ، كانت كذلك مقدمة لقيام أمة عالية ، تألفت من طريق الإعجاز على غير السنن الطبيعية ، أمة نموذجية لما يجب أن يكون عليه العالم تحت سلطان الأصول الخلقية ، والآداب النفسية ، لا تحت حوافز الحاجات المادية والضرورات المعاشية.

إن اجتماع القبائل لأجل أن تقوم من مجموعها أمة ، ليس بالأمر الشاذ في تاريخ البشر ، وإن كان يستدعى مقتضيات كثيرة ، وآماداً طويلة ، فإن الحاجات الحيوية ، والمطالب المادية كثيراً ما تدعو إليه وتحتمه . فالعوامل التي اضطرت الأفراد إلى الاجتماع على هيئة قبيلة لتأمين حياتهم ، وضمان معاشهم ، هي نفسها التي تضطر تلك الجماعات الصغيرة إلى التآلف والتضامن لتأليف أمة . وإذا كانت هذه العوامل تضطر بعض الحيوانات لتأليف جماعات منها لتتعاون على تذليل العقبات التي تحول بينها وبين ما هي في حاجة ماسة إليه ، فلا محل للتعجب من حدوث ذلك في العالم الإنساني ، ولكن العجب كل العجب أن تتألف أمة تحت سلطان أصول خلقية ، وآداب نفسية ، ومبادئ عالية ، لم تقم عليها أمة من قبل حتى ولا في عهد الرسالات الدينية في مثل هذه البرهة القصيرة التي تألفت فيها الأمة الإسلامية

ما يتكر عن بينة وفحص وروية وإعمال فكر وإدمان نظر ، ثم ينظر في قاعدة أخرى على هذا النحو ، وقد ذكر العلماء كثيراً من هذه القواعد كقولهم : « المشقة توجب التيسير» ، « الضرر يزال » ، « العادة محكمة » ، « تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة » ، « الخراج بالضمان » ، « الوسيلة والمقصد » ، ما يؤثر فيه الغرر وما لا يؤثر » ، «اليقين لا يزول بالشك» . الخ

وقد دعا إلى هذه الطريقة الفقيه المصري « شهاب الدين احمد بن إدريس القرافي المتوفى سنة ٦٨٤ هـ » فبث كثيراً من القواعد الفقهية في كتابه « الذخيرة » ثم ألف كتابه الجامع المعروف « بالفروق » وفي مقدمته يقول :

« وهذه القواعد مهمة في الفقه ، عظيمة النفع ، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويشرف ، ويظهر رونق الفقه ويعرف . ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت ، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت ، وضاقت نفسه لذلك وقنطت ، واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تتناهي ، وانتهى العمر ولم تقض نفسه من طلب مناها ، ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات ، واتحد عنده ما تناقض عند غيره »

والأستاذ الأكبر المراغي يرى هذه الطريقة واجبة فيقول في مذكرته التي جعلها برنامجه لإصلاح الأزهر منذ سنة ١٩٢٨ ولم ينفذها :

« يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة ، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة ، والأحكام المجمع عليها ، والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم كما كان يفعل السلف من الفقهاء »

وإني في مطلع هذا العام المبارك أسأل الله أن يهيئ لنا من أمرنا رشدا ، وأن يوفق الأزهر الذي هو حصن الدين والعلم والفقه إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين

محمد محمد المدني

إن كل العوامل التى عملت لتأليف الأمة الإسلامية ، ليست من جنس العوامل التى دفعت لتأليف الجماعات البشرية ، فقد جرت السنة الطبيعية فى تآلف الجماعات العظيمة ، أن تنتدب قبيلة كبيرة تحت قيادة زعيم معترف به ، لدعوة القبائل المجاورة تحت حافز قوى من مطلب أو مطالب مسلم بضرورتها لدى الكافة للقيام بتحقيقها ، فتحدث أولاً بينها اتفاقات جزئية مع حفظ كل منها لاستقلالها الذاتى ، ثم تأخذ هذه الاتفاقات فى التطور تحت تأثير الحوادث الاجتماعية ، فتسقط موجبات التخالف بين هذه الجماعات الجزئية شيئاً فشيئاً حتى ينتهى الأمر باندماج بعضها فى بعض ، بعد مرور آماد طويلة .

ولكن الأمة الإسلامية قامت على غير هذه السنة الطبيعية فبدأت بدعوة رجل واحد إلى عقائد ومبادىء غير مسلم بها من الكافة ، بل كان قومه وعشيرته الأقربون أشد معاداة لها من غيرهم ، وتبعه أفراد منهم لا يغنون عنه ولا عن أنفسهم شيئاً . ثم اتفق أن تأثر بدعوته أفراد من قبيلتين فى مواطن بعيدة عن موطنه ، تولوا دعوة ذويهم فقبلها كثيرون منهم . وهنا يجب أن يسلم أن العرب الجاهليين لم يكونوا يأبهون بتمحيص العقائد ، ولم يعتادوا أن يقتبسوا شيئاً من غيرهم ، بل كانوا يأنفون أن يخضعوا لزعيم من غير قبائلهم ، بله أن يميزوه على قومه ويستجلبوا بذلك على أنفسهم عداوة قبيل ليس بينهم وبينه ثأر قديم ، ولا سخائم موروثة

فلما هاجر النبى إلى موطن هؤلاء الذين قبلوا الدخول فى دينه ، احتفلوا به أيما احتفال ، وخولوه الزعامة عليهم ، وعاهدوه على أن يحموا دعوته وينافحوا عنها بأموالهم وأنفسهم . وانتشر الإسلام فى تينك القبيلتين بيثرب وهما بنو الأوس وبنو الخزرج ، حتى لم يبق بيت فيهم لم يصبأ أهله اليه

تطور غريب لم يعد له شبيه فى عالم الاجتماع البشرى : جماعتان كانتا بالأمس على الوثنية تقبلان ديناً ليس بين دينهما وبينه أقل شبه ، ومناقض لما نشأنا عليه كل المناقضة . وليس ذلك فحسب ، بل يدعو إلى أصول ومبادىء كان يمقتها العرب قاطبة ، ولا تتفق وما طبعوا عليه ، وأشربوه من العصبية الجاهلية ، كمبدأ التوحيد فى العقيدة ، ومبدأ المساواة بين الأجناس البشرية ، ونبذ التفاخر بالآباء ، والمباهاة بالمفاخرات الحربية ، ويصرفها إلى العمل على تطهير القلوب بالمجاهدات النفسية !

هذا تطور عجيب فى ذاته ، وأعجب منه أن يكون فى بيئة كل ما فيها يدعو إلى التعويل على الوسائل المادية ، والإخلاد إلى الحياة الأرضية ، وأدعى للعجب منهما أن يتم ذلك التطور طفرة ، وهو لا ينشأ عادة إلا بعد تطورات متوالية ، وظروف مواتية

قلنا فى مقدمة هذه المقالة أن تأليف هذه الجماعة كان مقدمة لقيام أمة عالمية جعلت نموذجاً لما يجب أن تكون عليه الأمم ، بعد أن تبلغ من التطور حداً يسمح لها أن تقوم على مثل ما قامت عليه من الأصول الأدبية ، والمبادئ الخلقية . فإذا صح ما يقال من أن الحياة الإنسانية أصبحت فى حاجة إلى مقومات اجتماعية غير التى تقوم عليها اليوم ، تتفق ومقررات العلم ، وتتلاءم وما هدى إليه البشر من الأصول الإنسانية ، بحيث تبطل بالقيام عليها الحروب ، ويتم بينها التعاون على توفير الخير لجميع الشعوب ، فلا سبيل إلى ذلك إلا باستبدالها الأصول الأدبية ، والمبادئ الخلقية ، بالأصول المادية البحتة التى تقوم عليها . وقد آنسنا فى غضون هذه الحرب العالمية المستمرة أن التفكير أخذ يتجه صوب هذا التطور العظيم ، بإقامة الصلح على قواعد إنسانية تسمح لكل شعب أن ينال حظه من المواد الأولية ، وأن يعيش على قدم المساواة مع غيره من سائر الشعوب الأرضية . وهذه من مبادىء الدولة النموذجية التى كانت الهجرة النبوية فاتحة لإقامتها

فإذا احتفل المسلمون بيوم الهجرة وجب أن يذكروا معها أن هذا اليوم كان بدء إقامة الدولة الإسلامية التى بلغت من امتداد السلطان ، ورونق المدنية ، وزعامة العلم والسياسة إلى ما لم تبلغه أمة قبلها ، وشيدت للمبادئ الإنسانية صرحاً لن يزال قائماً ما دامت الحياة الأرضية .

محمد فريد وجدى

في الرفيق الأعلى

للأستاذ دريني خشبة

لن أعفيك يا قلبي الحبيب من أن تذرف دموعك صلاة خالصة على فخر الكائنات ، بعد هذه القرون الطوال التي غبرت منذ أذرفت عيون المؤمنين حينما لحق الروح الكريم بالرفيق الأعلى ما كان أجلّها لحظات تتصل فيها الأرض بالسموات !

إن لم يكن بد من رفيق في هذا السفر الطويل فما أختار لك ! إلا قلبي ودموعي !

لا عليك يا قلبي الحبيب ، فقد تستطيع أن تصم أذنيك عما يجلجل في تيه الزمن ، من هُتاف المجد ، أو أنين الهزيمة ... في الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، فما أريد لك إلا أن تصل سالماً إلى ماوراء هذه السنين الألف والثلثمائة والخمسين والإثنتين ، لتشهد فخر الكائنات محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فوق ناقته بأرض عُرَنَة يخطب المسلمين ، بل يخطب البشرية كلها ، قائلاً فيما يقول :

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم[1] فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا[2] ! »

لشد ماوجفت قلوب المؤمنين لدى هذه الكلمة التي أرسلها

(١) بعض الروايات : اسمعوا قولي

(٢) ويروى بهذا الموقف أبدا . وغيره

فخر الكائنات بأرض عُرَنَة في حجة الوداع التي كره بعضهم[1] أن يطلق عليها هذا الإسم فدعاها حجة الإسلام وحجة البلاغ !

لقد نظر المسلمون بعضهم إلى بعض وقد غشيتهم من تلك المبادأة بالوداع غاشية ... ألا ترى إلى الرسول الكريم يتلو عليهم بعد صلاة العصر في اليوم نفسه ما أوحي إليه ثمة من قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا » فيسمعها أبو بكر فيبكي ، لأنه يضيفها إلى الكلمة التي قالها الرسول حينما زالت الشمس وهو قائم مقام إبراهيم يخطب ، فيعلم أنهما أمارتان من أمائر الفراق !

* * *

ثم ما هذه النُّوقُ الثلاث والستون ينحرها فخر الكائنات بِمِنَى يا رفاق ؟ ! أتكون عدد الدَّرَج إلى الرفيق الأعلى ؟ أليس قد بلغ الرسول الكريم عامه الثالث والستين من التقويم الهلالي ؟ أليست هذه هي الأمارة الثالثة ؟ لبيك أبو بكر إذن ، ولتبك الأجيال كلها معه ... فوالله لقد ظهرت الأشراط قبل هذا كله ... لم يكن النبي قد حج قط[2] ، فأمر هذه السنة أن يحج ليبين للناس مناسكهم ؛ وكان يعرض القرآن على صاحبه جبريل مرة واحدة كل سنة في رمضان ، لكنه عرضه عليه مرتين في هذه السنة ؛ وكان يعتكف العشرة الأواخر من رمضان لا يكلم الناس إلا رمزاً ، فلأمر ما اعتكف عشرين هذا العام ؟ أليس لأنه العام الأخير ؟

ويحك أيها الرجل محمد بن سيرين فيم رجوت أن تكون قراءتك هي العرضة الأخيرة ؟[3] أكان قلبك يحدثك كما حدث ابن عباس قلبه حينما نزلت : إذا جاء نصر الله والفتح ، فقال : داع من الله ووداع من الدنيا[4] ! ... أجل ... فهي العلامة التي حدث الرسول عنها عائشة ، قال : إن ربي كان أخبرني

(١) منهم ابن عباس وطاوس

(٢) يروى أنه (ص) حج مرة أخرى قبل الهجرة والأكثرية على أنه . يحج حجة الوداع

(٣) في طبقات ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ٣ ط ليدن : عن محمد بن سيرين قال : كان جبريل يعرض القرآن على النبي (ص) كل عام مرة في رمضان ، فلما كان العام الذي توفي فيه عرض عليه مرتين . قال محمد : فأنا أرجو أن تكون قراءتنا العرضة الأخيرة !

(٤) في البخاري ج ٦ أن ابن عباس قال لعمر وقد سأله عن سورة النصر : أجل رسول الله أعلمه إياه

بعلامة فى أمتى فقال إذا رأيتها فسبح بحمد ربك واستغفره ، فقد رأيتها ... وقرأ إذا جاء نصر الله ...

* * *

لله هذا المدلج إلى البقيع متكئا على ذراع مولاه أبي مُوَيهبة حتى إذا بلغ مراقد السابقين إلى الجنة ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، توقف قليلاً ثم قال يكلمهم : السلام عليكم أهل المقابر ، لِيَهْنِ لكم[1] ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى ... ثم أقبل على مولاه يقول له : يا أبا مويهبة إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، خُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة فاخترت لقاء ربى والجنة ؛ فيقول أبو مويهبة : بأبى أنت وأمى فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، فيقول له فخر الكائنات : لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربى والجنة !

ثم يأخذ فى الاستغفار للناعين فى التراب ، أستغفر الله ، بل للناعمين فى روضات الجنة ، أولئك الذين استجابوا لنداء السماء الذى يَسَّره الله بلسان محمد ! فيا للوداع ويا للوفاء يا رسول الله !

أهذا فقط ؟ كلا يا رفاق ، القلم والقلب والدموع ! فقد حَدَّث عقبة بن عامر الجُهَنى قال : إن رسول الله صلى على قتلى أحُد بعد ثمانى سنين كالمودِّع للأحياء والأموات ثم اطّلع المنبر فقال : إنى بين أيديكم فَرَط[2] ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإنى لأنظر إليه وأنا فى مقامى هذا ، وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تُنافسوا فيها[3]

ففى هذا الكلام معنى مما خاطب به رسول الله شهداء البقيع فقد هنأهم بما أصبحوا فيه مما أصبح الناس فيه ... وذكر إقبال الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ... وهو بعد صلاته على شهداء أحد يخطب الناس فلا يخشى عليهم أن يشركوا ، بل يخشى عليهم الدنيا أن ينافسوا فيها !

* * *

كان الرسول عند زوجه ميمونة عندما بدأ بالرسول شَكْوُه الذى تُوفِّى فيه[1] ، فذهب إلى زوجه عائشة ، وكأنها رأت أثر ما به من وعكة ، فقالت مداعبة : وارأساه ! فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال مداعباً : وددت أن ذلك يكون وأنا حى فأصلى عليك وأدفنك . فقالت عائشة غَيْرَى : أو كأنك تحب ذلك ؟ لكأنى أراك فى ذلك اليوم مُعْرِساً ببعض نسائك فى بيتى . فتبسم النبى أيضاً ، وتَتامّ به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استُعِزّ به وهو فى بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يُمَرَّض فى بيتى فأذِنّ له فخرج بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيتى .

وقد سئل ابن عباس عن هذا الرجل الآخر من هو فقال : إنه على بن أبى طالب ، ولكنها كانت لا تقدر على أن تذكره بخير وهى تستطيع !

وذهب الرسول إلى الفضل بن عباس فأخذ بيده حتى جلس على المنبر وهو معصوب الرأس ثم قال : نادِ فى الناس ، فاجتمعوا إليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وإنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستَقِد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه ، ألا وإن الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقاً إن كان له ، أو حَلَّلنى ، فلقيت الله وأنا أطَيِّبُ النفس ، وقد أرى أن هذا غير مغنٍ عنى حتى أقوم فيكم مرارا

أى والله يا رفاق ، القلمَ والقلبَ والدموع ، إن رسول الله وفخر الكائنات يخشى أن يلقى الله ولأحدٍ عنده حق لم يأخذه منه ، فهو يعطى ظهره لمن يرى أن يستقيد منه ، وهو يريد أن يحلله من لا يريد أن يأخذ حقه حتى يلقى الله وهو أطيب النفس . ثم هو يرى أن ذلك كله غير مغن من الله شيئاً ... فوارحمتاه لنا نحن يا رفاق !

(١) رواية الطبرى ج٣ وفى غيرها : ليهنئكم وليهنىء لكم

(٢) الفرط بفتحتين الذى يتقدم الواردة فيهيء لهم الأرشاء والدلاء ويمدر الحياض ويستقى لهم (عن الجوهرى)

(٣) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ١٠

(١) هذا من كلام عائشة رضى الله عنها

ثم صلى النبي الظهر وعاد فجلس على المنبر ليحاسبه الناس ، فقال له واحد منهم : يا رسول الله إن لي عندك ثلاثة دراهم ، فأمر النبي الفضل أن يعطيه إياها ؛ ثم قال النبي : يا أيها الناس من كان عنده شيء فليؤدِّه ولا يقل فُضُوحُ الدنيا ، ألا وإن فضوحَ الدنيا أيسر من فُضوح الآخرة . فقام رجل فقال يا رسول الله عندي — أي في ذمتي — ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله ، قال ولم غللتها ، قال كنت إليها محتاجا ، قال خذها منه يا فضل ... ثم قال الرسول يا أيها الناس من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدْعُ له ، فجعل الناس يقومون يعترفون بذنوبهم بين يدي رسول الله يدعو الله لهم ، حتى قام أحدهم فقال : يا رسول الله إني لكذاب وإني لمنافق ، وما من شيء إلا قد جنيته . فقام عمر بن الخطاب فقال : فضحت نفسك أيها الرجل ! فقال رسول الله يا ابن الخطاب فُضوح الدنيا أهون من فُضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقا وإيمانا وصَيِّر أمره إلى خير ، فقال عمر كلمة ، فضحك رسول الله ثم قال : عمر معي وأنا مع عمر ، والحق بعدي مع عمر حيث كان !![1]

فهل عرفتم هذا يا رفاق ؟ رسول الله يجلس ليحاسب نفسه وليحاسبه الناس وليحاسب الناس على ثلاثة دراهم ، لأن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ! ورسول الله لا يدع لليأس من رحمة الله سبيلاً إلى نفوس المؤمنين ؛ فهو يعرض على من يخشى من نفسه شيئاً أن يقوم فيدعو له ! وهذا عمر بن الخطاب يتميز على الرجل من الغيظ فيضحك رسول الله ويداعبه ، كما داعب عائشة من قبل . فمن منا حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله ؟ ومن منا عمل حساباً لفضوح الآخرة التي ينكشف بين يدي الله لا لفضوح الدنيا التي ينكشف بين أيدي الناس ؟!

رَبِّ أين نحن اليوم ؟!

* * *

إسمعوا إلى الرسول الكريم وهو يناجي ربه ويسأله الشفاء يا رفاق !

واسمعوا إلى أزواجه يداعبنه لما يرين من شكواه فتقول إحداهن : لقد اشتكيتَ في شكوك شكوى لو أن إحدانا اشتكته لخافت أن تجد عليها ، فيتبسم ويقول : أو لم تعلمي أن المؤمن يُشدَّد عليه في مرضه ليُحط به خطاياه ؟

واسمعوا إليه وهو يطلب ماء يصب عليه من سبع آبار عسى أن تخف عنه بُرحاء الحمى كي يدخل فيخطب الناس موصياً بأسامة وبَعْثِ أسامة لما سمعه من لغط الناس عن تأمير أسامة !

واسمعوا إليه وهو في المسجد يوصي المهاجرين بالأنصار ، ويأمر « بسد هذه الأبواب الشوارع[1] في المسجد إلا باب أبي بكر ؛ فإني لا أعلم امرأً أفضل في الصحابة من أبي بكر »

واسمعوا إليه يأمر أن يصلي بالناس أبو بكر ، فتراجعه عائشة في ذلك ، متذرعة بشتى الحجج ، مشيرة أن يصلي بالناس عمر ، فيغضب رسول الله ويذكر صواحب يوسف ! ويصلي بالناس أبو بكر . فإذا سئلت عائشة بعد عن سبب مراجعتها رسول الله قالت : « وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً . ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به ، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله عن أبي بكر ! »[2]

* * *

وهذا هو أبو بكر يصلي بالمؤمنين الصبح في هدأة الفجر ... وهذا هو رسول الله قد خرج عاصباً رأسه لينظر إلى أمته وليفرح بها واقفة بين يدي الله فيتفرج المسلمون لمرأى رسول الله وقد أوشكوا أن يفتتنوا من الفرح بفخر الكائنات ، فيعرف أبو بكر أن الناس لم يفعلوا ذلك ولا يصح أن يفعلوه إلا لرسول الله فينكص عن مصلاه ، فيدفع رسول الله في ظهره ويقول : صلِّ بالناس ، ويجلس إلى جنبه فيصلي عن يمين أبي بكر ، فإذا قضيت الصلاة أقبل رسول الله على الناس رافعاً صوته وهو يقول : أيها الناس سُعِّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وإني والله ما تمسكون عليَّ بشيء ، إني لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أحرم إلا ما حرم القرآن » ، ويفرح المسلمون بصحة وَهمُوها في رسول الله ، ويفرح معهم أبو بكر ، ويستأذن أن يلحق أهله بالسنح . فاليوم يوم بنت خارجة ! »[3]

(١) الطبري سنة احدى عشرة ص ١٩١

(١) في ابن هشام في اللافظة

(٢) رواة البخاري الجزء السادس

(٣) ابن هشام

الله . والإنسان . والحياة

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

— ١ —

جدّدوا الإيمان بالله رب الوجود واهب الحياة كما وصفه القرآن القديم ، وحدّثنا عن أعمال يده العلم الحديث ! فرّوا من طنين الشكوك والفلسفات الحائرة حول « الموجود الأول » الذى صدرت عنه جميع الموجودات وأنشئت بتدبيره واختراعه ، ونسقت بفنه وابتداعه ، ودامت بحفظه ورعايته !

واعلموا أن مفتاح الشر وباب الضّياع هو الشك فى تلك الحقيقة الأولية العظمى ، والانفلات من قيودها وهى قيود أمانات الحياة كلها !

ابدءوا حياتكم الفكرية بالحديث النفسى والقلبى عن تلك الحقيقة لتتعرفوا إلى جلالها وجمالها ، ولتطردوا عن أذهانكم وسوسة الشر وشوشرة الباطل .

إبنوا أساس حياتكم على صخرة تلك الحقيقة الراسية ، وقاعدتها العريضة الواسعة ؛ لتطمئنوا على أن وجودكم مستند إلى وجود أعظم ! وليس وهما طائراً فى أجواء هذه القوى العمياء التى يزخر بها الكون المادى .

اضربوا فى رحاب الحياة ومتاهاتها ثم عودوا إلى مكانكم الأول فى أحضان تلك الحقيقة مهتدين بالنور الذى يشع من هيكلها بالعُرى الوثقى التى تمتد منها فى كل اتجاه إلى الغرقى والضائعين والشاردين !

املأوا وجودكم بهذه الحقيقة واجعلوها تستبد بخواطركم ؛ فستكونون سعداء بهذا الاستبداد ، لأنه استبداد أساس البناء بالبناء كله إن يُحدّث نفسه بالبعد عن دعامته الأولى ؛ فينهار ويذهب هباء تذروه الرياح

إنها حقيقة تبعث ذلك الشعور الصادق العجيب بالانسجام مع الكون كله ، وحسبكم به من سعادة ! وبالاستناد إلى دعائم الكون كله ، وحسبكم به من حماية ! وبالوصاية على أماناته كلها وحسبكم بها سيادة ! وبارتفاع العقل والقلب إلى مستوى رفيع يعلو بنظراتهما ويَرْحُبُ بخطراتهما ويَعْمُقُ بأسرارهما ؛ وحسبكم بها كرامة !

وعلى الباحثين عن مصادر السعادة الفردية والجمعية ، وعن المسرات الأصيلة فى الحياة أن يفتحوا عيونهم وعيون الناشئين فى الجيل الجديد على هذه الحقيقة دائماً ويمسكوا بعرى أسبابها ،

إلا أنّ واحداً من المؤمنين لحسب لا تخدعه صحوة الموت فى أمر رسول الله ! ذلك هو ابن عباس الذى يقول لعلى وقد فرح بشفاء محمد : « والله لأرى رسول الله (ص) سوف يُتوفى من وجعه هذا . إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت »(١)

وعاد رسول الله إلى بيت عائشة فاضطجع بين سحرها ونحرها ... « ودخل عبد الرحمن بن أم رومان ، أخى ، وفى يده سواك رطب ، وكان رسول الله (ص) مولعا بالسواك ، فرأيته يُشخص بصره إليه ، فقلت يا عبد الرحمن اقضم السواك فناولنيه فمضغته ثم أدخلته فى فم رسول الله فجمع بين ريقى وريقه »(١)

وأخذت عائشة تعوذه بعد ذلك بدعاء كان من عادتها أن تُعوذه به إذا مرض . لكن رسول الله رفع رأسه إلى السماء وقال :

« فى الرفيق الأعلى ... فى الرفيق الأعلى ... »

***

يا رفاق الأحباء الأعزاء الأوداء ، القلم والقلب والدموع ! أين نحن الآن من هذا الرفيق ؟ أين نحن الآن من رسول الله ومما ترك لنا رسول الله !

دريني خشبة

(١) رواية البخارى

(١) رواية ابن سعد

ويعرفوها معرفة الرأى فى عقولهم والدم فى قلوبهم

وعبث لا طائل وراءه ، بل عناء ضائع ، بل جريمة موبقة أن يتجه محبو الإصلاح بقلوب الناس إلى قطب غير قطب تلك الحقيقة ، فإنه لا حق ولا طهر ولا عدالة ولا أمانة إلا فى محيطها

فليعرف ذلك الذين يدعون إلى تأسيس حضارة نفسية جديدة ويريدون أن يلائموا بين سياسة الاجتماع الإنسانى والسياسة التى تتجلى فى الطبيعة كلها

وحَسْبُ الإنسانية ما مضى من تجارب الشرود والجحود واللعب بالألفاظ . والانطلاق وراء خداع الفلسفات الشاذة وافتتان أرباب « الترف العقلى » الذين يشتهون كل غريب من الآراء يقدم إليهم على موائد الفكر ، كما يشتهى أرباب الترف المادى كل غريب يقدم إليهم على موائد البطون

— ٢ —

آمنوا بالإنسان الذى تحملونه فى أجسادكم ، وتستوحونه فى أفكاركم ، وتبادلونه ما صح وما فسد من شئونكم !

آمنوا به لتؤمنوا بالكون ورب الكون ... فلن يؤمن بهما من لم يؤمن به ؛ لأن عقله هو المنظار الذى ترون به كونكم وربكم . فإذا أهدرتم قيمة الإنسان أهدرتم عقله ، فلم يبق لكم ما تدركون به وجودكم وربكم !

ولكى تدركوا اللمحات التى تتراءى فى أعماق معنى الإنسانية حاولوا أن تتحرروا وتتجردوا وتخرجوا من نفوسكم ونوعكم وترصدوا الإنسان بعيون غريبة عنه وتروه بنظرات الملأ الأعلى ممن هو فوقه ، والملأ الأدنى مما هن دونه !

فأيقظوه لنفسه ، ونبهوه إلى امتياز وضعه ، وأقرئوه ما يكتبه الآن على صفحة الأرض

واتركوا الجدليات القديمة حول قيمته فقد هدرت شقاشقها حين كان عاجزاً عن شق الطريق أمام فكره

اخرجوا من غبار التاريخ القديم ، وافتحوا عيونكم على العالم كمخلوقين الآن ، تفكيرهم ابن زمانهم هذا ، ومنطقهم من وقائع الحاضر

أنظروا إلى الإنسان فى نصابه الأعلى دائماً ، ولا تنظروا إليه فى حضيضه الأدنى ؛ فإن من طبيعة كل كائن حىٍّ أرضىٍّ أن يكون له جِذْرٌ فى الطين والعُفونات ، أو أصلٌ فى الدم وبعض القاذورات

وإن النطفة التى خلق منها الإنسان أخلاطٌ وأمشاجٌ أخذت من العناصر الحادة والقوى العمياء ، ما يحمله منها على اضطراب وابتلاء ... وإن الفرد يحمل فى مجارى طعامه وفى أحشائه أوضاراً وأقذاراً نجسة تشمئز منها نفس حاملها ، ومع ذلك هو يقنع من نفسه بتقدير الوجه والرأس الذى يحمل الشخصية وقوى الفكر ...

فلا تنظروا دائماً إلى الذين هم فضلات فى جسم الإنسانية ، وتتخذوا منهم « مَقْطع » النظر إليها جميعاً . فيحملكم ذلك على التشاؤم والسخط والشك فى الخير والجمال الذى فيها

هم كالثمار الفجة المطوبة عَطِبَت وتلوثت ، لأنها سقطت لضعف روابطها بفروع الشجرة التى تسمو

إننا نحمل أقباساً منيرة مطهرة من عالم الحق والطهر والجمال ولكنها وضعت فى أجسامنا : تلك الأوعية الطينية السريعة التعفن . فمن الناس من يدوم على تطهير وعائه وصقله حتى يستحيل إلى زجاجة شَفيفَة رائعة تساعد ذلك القبس على السطوع والإشراق

ومنهم من يتركه كما هو من غير تطهير وصقل بالعلم والتهذيب فيظل مُعتماً ويَحُول بين ذلك القبس وبين السطوع الكامل ...

ومنهم من يضع فى ذلك الوعاء ما يزيده عتمة وكثافة تطغى على ذلك القبس وتمحق شعاعه وتجعله منبع ظلام

فلأجل النور ! نَبِّهوا كل مصباح إلى رسالته ، وَحُولوا بين الظلام وبين زجاجته ...

ولا تحملنكم حياة الظلام الراهن على أن تتشاءموا وتسخطوا وتحطموا ما بقى لكم من مصابيح ، فتعيشوا فى عمياء نهارها كليلها ...

— ٣ —

وصدِّقوا الحياة وكذبوا المتكلمين الذين يمارضونها ، ويزعمون أنهم أصدق منها ، ويغرون الناس بسبابها وتحقيرها ، ويملأون قلوب فتيانها الناشئين بأحاسيس السخط عليها قبل

أن ينالهم منها ما يبرر ذلك ، ويخلقون لأنفسهم عوالم خيالية منفصلة عن الحياة ومنطقها العملي ، ويقذفون بكلمات جوفاء على كلمات البداهة والطبع فيحجبونها عن أنظار القاصرين الذين ينظرون نظراً سطحياً ، فيذهبون ضحايا الانخداع بزخارف القول المغرور وأوهام الفكر الشرود

والحياة بالغة الحجج مفحمة المنطق جارفة التيار ، تدفع الإنسانية دائماً إلى مجراها الذي يصب عبابه وتتضرب أمواجه على رغم هؤلاء المتكلمين المتشائمين . فلا سبيل إلى الوقوف في وجهها وتحويلها . وكل من زعم أن منطقه أصدق من منطقها فله ما شاء من زعمه . أما أبناء الحياة الذين سادوا فيها فلا يعرفون إلا وجه أمهم الواضح القسمات المعروف السمات . . .

واعتقادي أن الذي جنى على الدين أن الناس حسبوا منطقة الدين منفصلة عن الإحساس العام بالحياة ، وزعموا الدين لغير الحياة الدنيا ، فجابهوهما بقلب موزّع وفكر حائر بينهما ، وحاول المتعبدون منهم الفرار من الدنيا قبل أن تستوفى ضرائبها منهم ويستوفوا تجاربهم فيها ، وظنوا العبادة فترات انسلاخ من الحياة بالطقوس والرسوم وما إليها من المظاهر التي هي مواقف « استعراض » للمؤمنين لا أكثر . . . مع أن لب العبادة هو أن تشعر دائماً في نفسك بفيض الحياة : ذلك الشأن الإلهي العجيب ! وأن تتيقظ لفعله في ضربات قلبك وخطرات فكرك ، ونبضات خلاياك وهمسات نفسك ولمحات عينك ... وألا تنسى أنك دائماً تتلقى ذلك الفيض من ينبوعه الأعظم إلى أجل . . . فيحملك ذلك الشعور اللازم على أن تحافظ على وجودك الذي هو مظهر تلك الأسرار ومشكاة تلك الشعلة ، فلا تعطل قوة من قواه ، ولا تطمس رسماً من رسومه ، ولا تقعد به عن الزحام في مجالات العمل الكريم الذي يذكي شعلة الحياة ويلقى إليها حطباً يشبّ ضرامها ...

والوجود الإنساني الكامل الصحيح هو الذي ينتج الشعور الصحيح والفكر الصحيح والخلق الصحيح والعمل النافع الدائم ؛ وهو الذي أنتج وسائل التغلب والسيادة على عقبات الطبيعة ، والقدرة على تمهيد الأرض للانشاء والتعمير ، وتخفيف المشقات والآلام ؛ وهو الذي حقق تلك « الكرامات » العجيبة الدائمة التي أكرم الله بها الإنسانية على أيدي علمائها الذين جعلوا همهم البحث عن أسرار صنعة الله وقراءة كلماته الظاهرة والباطنة في الآفاق وفي الأنفس ومحاكاة نماذجها .

. وإذا كانت كرامات الأولياء أمراً مؤقتاً خاصاً بهم ، فإن كرامات علماء الطبيعة أمر دائم مشاع للانسانية جميعها . . .

فلنعرف ذلك جيداً ليحملنا على الاعتراف بصدق الحياة والإقبال على الكشف عن أسرارها ، والإيمان بأن جميع أحلام الإنسانية في السيطرة على شئون الأرض ستحقق قبل انقضاء رحلتنا على سطحها

وينبغي ألا نخلط بين شرور الإنسان وبين آلام الحياة التي لا دخل للانسان فيها حين نتحدث عن صدق الحياة . فإن الحياة من يد الله بريئة صحيحة قليلة الشر والألم ، ولكن الذي يضاعف الشر ويمحو بشاشة الحياة هو الإنسان القاصر الجاهل الناشيء في أحضان السفاهات والجرائم والإهدار لقيمته . . . ومن هنا وجب الإيمان بالإنسان وإيقاظه لنفسه أولاً على نحو ما قدمناه في هذا الصدد لكي يحتجب شره وينمو خيره فيظهر وجه الحياة الجميل البريء ، ويظهر وجه الإنسان الكامل المنشود ، ويظهر وجه الله الرحمن ذي الجلال من خلالها حتى يراه كل فكر جحود وقلب كنود !

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق!)

وتلك نبوة الحياة الصادقة ، يبثها سر الإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه وجعله خليفة في الأرض ليظهر غيوبها ويثير دفائنها ، ويلبس بروحه الحية موادها الميتة فيجعلها تحيا بروحه وتفكر بعقله وتخطو بسرعة فكره !

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ! فسجدوا ...)

ذلك هو حديث الزمان يرسله هامساً في أذن الإنسان خلال صيحات وحوش الحديد والفولاذ الرابضة والسائرة والسابحة والطائرة ، وبين دوى الآراء والمذاهب الهدامة والفلسفات الشاردة الحائرة . وأعتقد أنه نداء يجب أن يكون عنواناً لتجديد الدعوة الدينية في هذا العصر الحائر المتهافت ، وأساساً فكرياً صالحاً لوصل العقول والقلوب بأعماق الكون ولباب الإنسانية وصدق الحياة !

عبد المنعم محمد خلاف

هجرة الروح

للأستاذ زكي نجيب محمود

قال صاحبي وهو يحاورني: ما أنا بمؤمن بما زعمت لي من رأي

فقلت أي رأي تريد ؟ فما أكثر ما جادلتني منذ أخذت فيما أنت آخذ فيه هذه الأيام من قراءة الفلسفة

قال: ألا تذكر إذ كنت تسايرني وتسامرني في مماشي حديقتك الغناء ليلة الهجرة ؟ ألست تذكر حين أخذت تقص علينا كيف أوذي النبي في مكة فهاجر إلى المدينة ، وكيف نشب القتال بين المسلمين والكافرين ، حيث اضطرمت نفوس المؤمنين بحماسة الإيمان فاندفعوا يريدون: إما نصرة الدين وإما الخلود في دار النعيم ؟ ... وعندئذ أبصر زميلنا « م » المتفلسف الشكاك بزهرات متناثرات هنا وهناك ، فقهقه ساخراً وهو يقول : « خلود ! » ثم أدار عينيه ناحية الجدار فإذا هو يرى جماعة من النمل حركتها قدم فلبثت جامدة على الأرض صرعى حيث كانت ، فارتفعت قهقهة الزميل مرة أخرى، ورنت فيها نبرات السخرية التي عهدناها في ذلك الزميل الساخر ...

فقلت : نعم ، إن لما تقول لأثرا خافتاً كادت تنمحي من صفحة الذهن معالمه فلا أكاد أتبينه في وضوح ، فما الذي أضحك « م » ؟

فقال أضحكه أن يرى منثور الزهر ومبتور النمل راقداً كأنما هو جثث القتلى في حلبة القتال يوم المعركة ، وقد علق بقوله : أليست الحياة هي الحياة حيثما تبدت في بشر أو حشر أو زهر ؟ أي فرق ترى بين زهرات تطأها فتذويها ، ونمال تمر كها بقدمك فترديها ، وجماعة الجند في حومة الوغى تصفعهم بالحديد والنار فتوردهم موارد الحتوف ؟ لكنه الإنسان المغرور ظن بنفسه الامتياز فاختص روحه بالخلود والبقاء ، وطوح بسائر الأحياء في مهاوي البلى والفناء ...

ولست أكتمك الحق يا صديقي ، فقد أخذت أعيد قول زميلنا « م » بيني وبين نفسي ، وأديره مرة بعد مرة في رأسي ، حتى أرّقَ الفكرُ جنبيَّ في غير طائل ؛ فبعد طول التفكير لم أجد في قبضتي غير ريح ، ولم يكن حصادي سوى هشيم ! ولجأت إلى كتبي أقلب صفحاتها ، أنزع كتاباً وأضع كتاباً ، فما صادفت غير الحيرة والشك المميت ؛ فما زلت أسائل نفسي بما سأل « م » أي فرق ترى بين زهرات تطأها فتذويها ، ونمال تمر كها بقدمك فترديها ، وفرقة من الجند تصفعها بالحديد والنار يوم الوغى فتوردها موارد الحتوف ... ؟ فلا بأس يا صديقي أن نعيد الحديث بعد عام كامل ، في مماشي حديقتك وفي ليلة الهجرة ؛ أفيكون غرور الإنسان حقاً هو الذي ...

فقاطعت صديقي قائلاً : كفى ، كفى ، فلم أعد أميل إلى مثل هذا الجدال وإنه لعقيم ، فلقد قرأت في صدر شبابي كل ما أنت به اليوم معجب مفتون ، واجتزت عهداً أراك تجتاز مثله الآن ، عانيت فيه ما عانيت من كرب وضيق . وكم قرأت وقرأت ، فكنت أتلون بما أقرأ كأني حشرة حقيرة تدب على ظهر الأرض وتسعى ، فتصفر إن كانت تحبو فوق الرمال ، وتخضر إن كانت تزحف فوق الحقول . كنت أقرأ الشكاك فأشك ، ثم أقرأ المؤمنين فأومن .. هذا كتاب متشائم أطالعه فإذا أنا الساخط الناقم على حياتي ودنياي . وذلك كتاب متفائل أطالعه فإذا أنا الهاشُّ الباشُّ المرح الطروب ؛ لكن أراد الله بي الخير فأفقت إلى نفسي فوجدتها مضطربة هائمة تعصف بها الريح هنا وهناك ، وهي في كل ذلك تعاني من القلق والهم ما تعاني ، وهداني الله سواء السبيل . أتريد أن تسمع مني — إذن — نصح الخبير ؟

فقال : أحبب إلى نفسي بما تقول !

فقلت : إني منتزع لك القول من هذا اليوم الخالد ؛ فنصيحتي أن تهاجر كما هاجر الرسول

قال : وكيف وأنت أعلم الناس بأمرى ، فمالى بغير هذا البلد مأرب ولا عيش

قلت : لئن هاجر الرسول الأمين في عالم المادة ، فهاجر أنت في عالم الروح

قال : وماذا تريد بهجرة الروح

قلت : لقد هاجر النبي الكريم بمعنى الرحلة من بلد إلى بلد ، فهاجر أنت بمعنى الرحلة في مكتبتك من رف إلى رف ! لقد أوذى النبي الكريم في مكة فهاجر إلى المدينة ، فجاءه نصر الله والفتح ، ورأى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، وها أنت ذا تؤذيك أباطيل العقل في بعض الكتب فدعها إلى سواها ، لعلك بذلك منتقل من ضلال العقل إلى إيمان القلب حيث السكينة والقرار . ولقد كانت هجرة النبي مولداً جديداً لرسالته ، فأرجو أن تكون هجرتك من كتب إلى كتب بعثاً جديداً لروحك المعذب الظمآن . إن من ابتلّ جسمه بالماء وهو في البحيرة مغمور لا بد له من الخروج إلى الشاطئ المشمس إن أراد لنفسه الدفء والجفاف . أما أن يثب من البحيرة إلى البر فقد ازداد بلّة على بلة ، وذلك ما صنعته أنت حين أرمضتك فلسفة صديقنا « م » فطلبت النجاة في كتب الفلسفة !

إني مُذْ أراد الله لي الهداية أكره أن أناقش مسائل الدين بمنطق العقل ، ولكني لا أزال ألمح في عينيك حيرة الشك ، مما سمعته من سخرية صديقنا بروح الإنسان وخلودها ، فدعني لحظة أخاطب فيك الفطرة والبداهة ، فأقول : أليس أمل الإنسان في خلوده بعد الموت دليلاً على خلوده ؟ إن رغبة الإنسان في الطعام ما كانت لتوجد لو لم يكن الطعام موجوداً ، ورغبة الإنسان في زمالة الأصدقاء يستحيل أن تنشأ إن لم يكن إلى جانب الإنسان الواحد ناس يزاملونه ويصادقونه ؛ فالزهرة والنملة فانيتان وهما لا تنشدان خلوداً ، أما الإنسان فراغب فيه ساع إليه ، ويستحيل أن يكون له ذلك ما لم يجد في فطرته وجبلته ما يوحى إليه أنه خالد ؛ فلماذا لا يستوحى صديقك « م » فطرته بدل أن يأتي بسمعه وفؤاده إلى هذا وذاك ؟ أإذا اهتدى بوحى البصيرة إلى الحق أنكره ، لأن غيره لم يجد السبيل إلى الهدى ؟ إنه إذن كمن يحدّج ببصره في الشمس ساطعة فينكرها لأن زميله المكفوف لم يرها !

ألم تقرأ عن « مذهب الذرائع » الحديث الذي يصور آخر ما بلغه العقل الفلسفي ؟ إنه يقيس صدق الفكرة أو بطلانها بمقدار نفعها ؛ وذلك لأن الحق المطلق في رأيه معدوم ، فإن أدّت الفكرة إلى نجاح الحياة الإنسانية وازدهارها فهي الحق ، وإلا فهي كذب وباطل . فلنسأل صديقنا المتفلسف : أيهما أنفع للحياة الدنيا نفسها أن يعتقد الإنسان في خلوده أو في فنائه ؟ أي العقيدتين يؤدي إلى الفضيلة والخير ؟ فإن كانت الأولى فحسبنا ذلك وليس بنا بعدئذ حاجة إلى لجاجة وجدال ...

كلا يا صديقي ، لا تلق بنفسك في هذه الشكوك التي قد تنزى بها غاشية الحرب ، فيتجهم أمام ناظريك الأفق وإنه لمشرق وضاح ؛ بل هاجر كما هاجر الرسول الأمين ، ولتكن الليلة موعداً لهجرتك

هل جاءك حديث الإمام الغزالي وهو « حجة الإسلام وزين الدين » ؟ لقد قرأ إبان نشأته ما قاله الحكماء والفلاسفة ، فارتجت له نفسه وأخذه الشك من كل جانب . إقرأ له « المنقذ من الضلال » لتستمع إلى قصته عن نفسه يروى لك ما قاساه في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مبتدئاً بعلم الكلام ، ومنتقلاً بعد ذلك إلى دراسة الفلسفة ، ومنتهياً بطريق الصوفية ، خائضاً في كل ذلك بحر الخلاف ، متوغلاً في كل مظلمة ، متهجماً على كل مشكلة ، فاحصاً عن عقيدة كل فرقة ومذهب ؛ وهو يقول إن التعطش إلى درك حقائق الأمور كان دأبه وديدنه من أول عمره ، غريزة وفطرة من الله وضعها في جبلته من غير اختيار منه ؛ فلما أدت به دراسته الطويلة العميقة إلى حيرة الشك ، « حزن قلبه ، وانمحت صحته ، ثم التجأ

إلى الله الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، فأجابه ... » وعاد إلى الإمام المؤمن يقينه « ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة »

ثم هل جاءك نبأ « تولستوى » ذلك الأديب الفحل ، والفيلسوف العظيم ؟ إنه غاص فى أغوار الفكر وغاص ، ثم انتهى به الأمر أن يفرغ مكتبته من كل ما فيها على أنه باطل وهراء ، ولم يبق على رفوفها سوى الكتاب المقدس وبعض الكتب الدينية ! لقد جثمت على صدره أزمة نفسية ، كالتى ألمت بإمامنا الغزالى ، فأحس كأن شبحاً مخيفاً يطارده ، واسودت الدنيا فى عينيه ، وبلغ به اليأس والقلق حداً بعيداً ، فأخفى عن نفسه « بندقية » الصيد خشية أن يصوبها إلى صدره فى ساعة من ساعات القنوط ؛ وقال عن نفسه على لسان شخص من أشخاص قصصه : « لم يعد لدى شك فى أنى — ككل كائن حى — لن أصيب فى هذه الدنيا غير الألم يعقبه الموت والفناء » ، وشرع « تولستوى » يقلب صفحات الكتب الفلسفية ذات المذاهب المختلفة ، فيستطلع آراء أفلاطون وكانت وشوبنهور وباسكال لعله واجد فيها ما يرد له الطمأنينة بعد حيرة وقلق ، لكنه تبين أن آراء هؤلاء الحكماء — كما يقول — « واضحة جلية دقيقة حينما تبتعد عن مشاكل الحياة المباشرة ، ولكنها لا تهدى الحائر سواء السبيل ، ولا تبعث الطمأنينة إلى القلوب الضالة القلقة » ولم يلبث « تولستوى » أن هجر الأدب ثم الفلسفة ، واتجه إلى الدين لعله يجد فى نوره الهداية واليقين ؛ فلئن عجز العقل عن هداه فليلجأ إلى القلب ، ودعا ربه قائلاً :

« اللهم هبنى إيماناً قوياً أملأ به قلبى ، وأهد إليه غيرى »

هاجر يا صديقى كما هاجر الرسول الأمين . لقد هاجر النبى الكريم بمعنى السفر من بلد إلى بلد ، فهاجر أنت بمعنى الرحلة فى مكتبتك من رف إلى رف . لقد أوذى النبى الكريم فى مكة فهاجر إلى المدينة ، وها أنت ذا تؤذيك أباطيل العقل فهاجر إلى القلب وانعم بإيمانه تنعم بالسكينة والقرار . لقد كانت هجرة النبى لرسالته مولداً جديداً ، فلتكن هجرتك فى مطالعاتك بعثاً جديداً لروحك المعذب الظمآن

هاجر يا صديقى كما هاجر الرسول ، ولئن هاجر النبى فى عالم المادة فهاجر أنت فى عالم الروح .

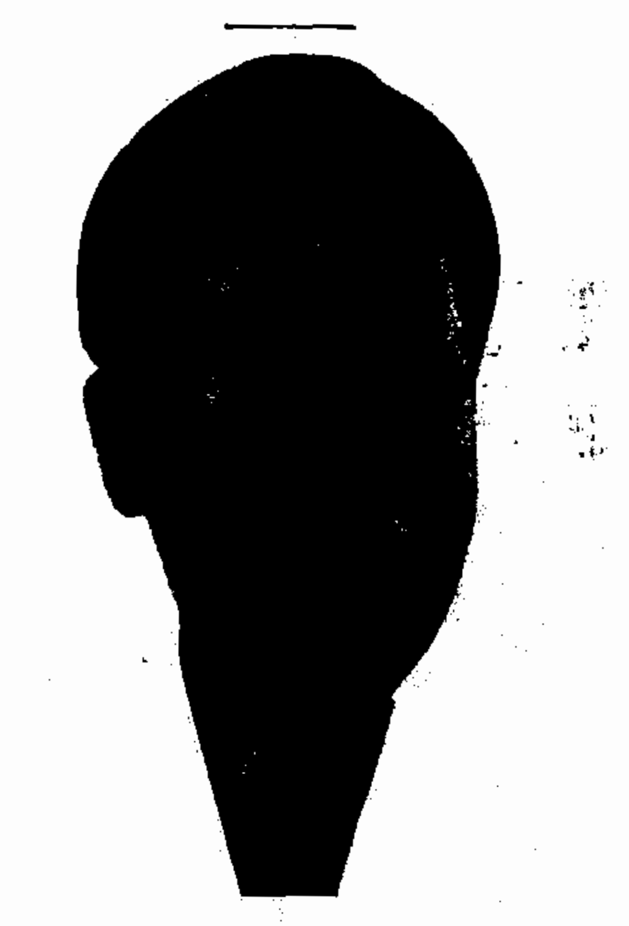
زكى نجيب محمود



خيبة سراقة

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

[وقف « سراقة » مبهوتاً فى طريقه إلى غار ثور متقفياً أثر المصطفى وصفيه الصديق ... ساخت قوائم فرسه فى الرمال ، وردته معجزة العنكبوت حيران الضلال ... *]



سراقة يحدث نفسه :

وَيلاهُ مما سَطَّرَتْهُ الرمالْ ... آثارُ وَهْمٍ فى مَغانى خَيالْ ...
أَرَكْبُ جِنٍّ حين مَلَّ السُّرى ... فى عالم الناس ، تَوارَى ومالْ !
أَمْ مَوْكِبٌ للنور أقدامُهُ ... خَلَّفْنَ فوق الأرض رُؤيا زوال !
أمْ قافلاتُ الريح كانت هُنا ... تمشى ، وألقت رَحْلَها فى الجبال !
أمْ حُلُمٌ مَرَّ ، وَهذا الثرى ... وَادِى كَرًى نامت عليه الليال !
أمْ نغم سارَ وَأَشْباحُهُ ... مَسَسْنَ صَدْرَ البِيدِ مَسَّ الظلال !
أمْ فارس للغيب عانى الخُطا ... جَوادهُ المسحور تلك التلال !
جرى عليها وَهْيَ تجرى به ... كما جرى بالروح عصف الملال
سُبحان من علم أرْسانَهُ ... تَخَطُّفَ الوحْيِ ، وَبُعْدَ المحال
هٰذِى هَواديه ، وَذا خَطْوُهُ ... زَفْزافُ ريح طاردته الثمال
عدا جوادى خلفه ، فانظرى ... ياخَيْبَتى : كيف حططنا الرحال !
قوائم ينهش منها الثرى ... ما دسه لله غدر الرجال
مغروزة فى الرمل تلهو بها ... طرائد الوحش ، وريح الشمال
ناحت عليها صهوة طُهِّمَتْ ... وَطُمِّمَتْ باليأس قبل النضال
تذيبُ ساقٌ بأفوافِها ... كأنها مَحْشُوَّةٌ بالنِّصال
أحرّ تحتى من جحيم اللظى ... وَوَخزةِ الذُّلِ ، وَفَحِّ الصِّلال
كأنما قنا بِعُرْضِ الفَلاَ ... تمثالَ خزى عبقرىِّ المثال
رباه ما هذا ؟ جواد سرى ... أم لعنة ، أم خيبة ، أم ضلال !

« سمفونية » الغار

يسمع الغار حديث سراقة لنفسه فيتلاقى هتاف المنكبوت والحامتين والثعبان فى هذا النشيد :

سَماءُ البِيدِ بُشْرانا ... « سُراقَةُ » عادَ حَيْرانا
أتى وَالكفر يرعاه ... ونور الله يرعانا

أتى ليصد أنوارا ... فَجَرْنَ البِيدَ أنهارا
فصد الله مسعاه ... وَذاقَ الذُّل والعارا

بسَيْفِ كافر ظَلاَّمْ ... جَرَى لِيطَارِدَ الإسلامْ
هَتَفْنَا إذ رَأَيْنَاهُ ... رَماكَ اللهُ بالإظلامْ

فَعادَ يُقَلِّبُ الكَفَّينْ ... كَفيفَ القلب والعينين
تَرى الأشباحَ عيناه ... وَيَسْأَلُ أَيْنَ نَفْسِى أَيْنَ؟

وَلاذَ نَبِيُّنا بالغارْ ... فَحامَتْ حَوْلَهُ الأقدار
وَصَانَ ضِياءهُ اللهُ ... لِيَسْطَعَ مَشْرِقُ الأدهار

(*) هذه بقية للمشهد الثاني الذى دار لحنه بين المنكبوت والحامتين والثعبان في غار ثور فى العدد الممتاز السابق لهذا من (الرسالة)

الإسلام بين العقل والروح

للدكتور زكي مبارك

قلت مرة: إن النضال بين الإسلام والنصرانية أتاح فرصاً كثيرة لمباحث نفيسة تغذّي القلوب والعقول، وتكشف عن آفاق ما كان ينتظر أن تُكشف لو أراد الله أن لا يقع ذلك النضال

والمجادلة لا تُذمّ إلا إن صدرت عن سوء نية، لأنها عندئذ تكون عملاً من أسوأ الأعمال، أما إن صدرت عن رغبة في الفهم والتحقيق، فهي عمل مقبول دعا إليه جميع الحكماء في جميع البلاد

وأنا ماض في تبديد شبهة وجّهت إلى الإسلام ألوف المرات، وسأقضي على تلك الشبهة قضاء مبرماً. سأقتلع جذورها فلا تنبت بعد اليوم، وسأقوّض جدرانها فلا يقوم لها بناء إلى آخر الزمان

فما هي تلك الشبهة، ولا أقول التهمة، ترفقاً بالمجادلين ؟

هي قولهم إن الإسلام شريعة مدنية، وليس عقيدة دينية، فهو في نظرهم مجموعة قوانين، وليس ديناً يهتم بتأصيل المعاني الروحية في صدور المؤمنين

وزادوا فقالوا: إن الإسلام لم تشع فيه الروح إلا حين عرف التصوف، والتصوف في رأيهم نزعة مسيحية العرق، وليس لها في الإسلام أصول

وأسارع فأقرر أنه لا يضير الإسلام أن يكون مجموعة قوانين، فسنرى بعد لحظات معنى هذا من الوجهة الروحية، وهي مثار الاعتراض

وأقرر أيضاً أن المعاني الإسلامية المقبوسة من المسيحية ليست سرقات، حتى يعيرنا بها فريق من الناس، وإنما هي ميراث أخذناه باستحقاق، لأن الإسلام بنص القرآن هو الوارث لجميع الشرائع السماوية، والمؤلفون المسلمون ينقلون أقوال سيدنا موسى وسيدنا عيسى باحترام، تقرباً إلى الله، لأن الله أوصى سيدنا محمداً بإعزاز جميع الأنبياء والمرسلين

وإذا كان التصوف الإسلامي منقولاً عن أصول مسيحية — ولنسلّم جدلاً بهذا — فما كان التصوف مما اتفق عليه جميع أئمة المسلمين، فقد ثار عليه رجال من أقطاب الباحثين، وعدّوه خروجاً بالإسلام عن صبغته الأساسية، وهي الصبغة التشريعية

ومعنى هذا أن الهدية مردودة إلى مهديها الأول، على فرض أن التصوف هدية، وعلى فرض أنه بعيد من الروح الإسلامي

إسمعوا يا أيها المجادلون بلا بصيرة وبلا يقين

أنتم اعترفتم بأن الإسلام يعرف العقل ولا يعرف الروح، بدليل أنه في نظركم ليس إلا مجموعة قوانين

وهنا الخطر كل الخطر، الخطر عليكم لا عليه، فالخطأ في الحكم المدني أو الجنائي لا يحتمل الجدال، لأن نقضه أسهل من السهل، بسبب ارتكازه على العقل، فلو كانت القوانين التي أذاعها الإسلام واهية الأساس، لثار عليه المشرّعون في جميع بقاع الأرض، وعدّوه أسطورة بدوية منقولة عن سراب الصحراء

ولا كذلك الخطأ في الحكم الروحي لأن الحكم الروحي غير محدود بحدود، فمن حق كل روحاني أن يسفّه من يخرجون عليه، بحجة أنهم محجوبون عن الروح، وذلك باب يدخل منه الدخلاء والأصلاء على السواء

وإذن يكون الإسلام تحدّى جميع الديانات، تحداها بالعقل قبل الروح، تحداها بما لا يجوز فيه الخطأ، وهو التشريع، تحداها بالنبي الأميّ، ليعرف من لا يعرف أن وحي السماء فوق إيحاء الكتاب

ماذا أقول ؟ هل بددت الشبهة ؟ وكيف والكلام إلى هنا

يؤيد القول بأن الإسلام دين العقل ، وليس دين الوجدان ؟

أفترع الحديث فأقول :

إن التهمة صحيحة ، تهمة الإسلام بأنه لا يقصر اهتمامه على الشؤون الروحية ، وإنما يوزع اهتمامه على كثير من الشؤون العلمية والاجتماعية والمعاشية ، وهنا الطعن الذي لا ينفع فيه علاج (؟ !)

إسمعوا ، ثم اسمعوا ، يا أيها المجادلون

كل مايعرف المسلمون من العلوم والفنون والآداب والقوانين ليس إلا وسائل لغاية صريحة هي خدمة القرآن ، والقرآن وحي من الله ، وبخدمة القرآن نتقرب إلى الله

علوم النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع علوم تساعد على فهم القرآن ، فهي وسائل أدبية لغاية دينية ، فنحن نتقرب بها إلى الله

وعلم الفقه ينظم المعاملات بين الناس ، ليعرفوا سبيل النجاة من غضب الله ، فنحن بعلم الفقه نتقرب إلى الله

وعلم الحساب يساعد على تحديد الأغراض الاقتصادية بين الناس ، فنحن بعلم الحساب نتقرب إلى الله

وعلم الفلك يساعد على تحديد المواقيت ، فنحن بإدراك دقائقه نتقرب إلى الله

وعلم التاريخ يخلق العظة بالحوادث ، وقد رآه القرآن من وسائل الترغيب والترهيب ، فنحن بعلم التاريخ نتقرب إلى الله

لاموجب للإطناب ، ففي أول كل كتاب نجد الراجز يقول :

إن مبادي كل فن عشرة الحد والموضوع ثم الثمرة

إلى آخر ما قال ، ولاموجب للنص على أن علماء المسلمين لم يدركوا للعلم غاية غير خدمة الشريعة الإسلامية ، فذلك واضح في جميع مؤلفاتهم ، حتى علم الحساب . وقد راعى هذا المعنى أستاذنا محمد بك إدريس فنص عليه في مقدمة كتاب الحساب لطلبة الأزهر الشريف

جميع العلوم والفنون وسائل لخدمة الدين الإسلامي ، والتكسب أو التسبب له في الإسلام آداب ، مع أن الظاهر يوهم أنه بعيد من الروح

كل خطوة تخطوها في صباحك أو مسائك ، لها في حياتك المعاشية صلات بحياتك الدينية ... بهذا يوصيك الإسلام ، لأنه دين العقل والروح

إن الحج وهو فريضة دينية ، أبيحت فيه المنافع الماشية ، لأن الله يرى أن جميع الفضائل وسائل إلى رفاهية المعاش

وهل ننسى أننا نطيع الله لننعم بالفردوس ؟

المزية الصحيحة للاسلام هي دعوته إلى أن نسيطر على جميع بقاع الأرض ، لنحقق الصلة بيننا وبين الله بإقامة دعائم العدل فوق جميع البقاع ، ولنحقق إرادته السامية في أن تكون الكلمة العليا لله وللمؤمنين

مزية المسلمين أنهم لا يقابلون الله وجهاً لوجه ، كما يتوهم المسيحيون ، وإنما يقابلونه في مخلوقاته من الأنهار والبحار ، والجنة والناس ، والحقائق والأباطيل

وأين الله ؟ هل رآه من يدعون أنهم أبناؤه ، صادقين أو كاذبين ؟

المسلم هو الصورة الحقيقية للمؤمن

المسلم هو خليفة آدم ، وقد جعل الله آدم خليفة على الأرض ، وللأرض آداب لاتعرفها السماء ، لأن فيها تكاليف لم يسمع بها سكان السماء

المسيحي يخاطب الله في ذاته فيستريح ، والمسلم يخاطب الله في مخلوقاته فيتعب ، والتعب شارة الرجال

وأنا مسلم ، لأن الإسلام يوجب على أبنائه أن يذكروا الله في جميع الشؤون

أنا مسلم بالرغم مني ، لأني لا أرى ديناً يفوق ما في الاسلام من تكاليف ، والتكاليف هي الأساس لتجربة أخلاق الرجال

أنا مسلم بالعقل وبالروح ، والدين عند الله هو الاسلام ، لأنه الصورة النهائية للحسن والصدق في التشريع

حاولت أن أرتاب في الاسلام فلم أستطع ، حاولت بالعقل وبالروح في حدود ما أطيق ، وأين أنا مما أطيق ؟

الآن آمنت بأن الاسلام دين العقل والوجدان .

زكي مبارك

من مذكرات ابن أبي ربيعة

جريرة ميعاد

للأستاذ محمود محمد شاكر

« قال عمر ابن أبي ربيعة ... » :

ركبتني الحمى ثلاثاً حتى ظننت أن الله قد كتب على أن أذوق حظي من نار الدنيا قبل أن أردَ على نار الآخرة . وكنت أجد مسها كلذع الجمرات على الجلد الحي ، وأجدني كالذي وضع بين فكيه ضرساً من جبل فهو يجرشه جرش الرَّحى ، وظللت أهذي وابن أبي عتيق يتلقف عني ما كنت أُسِرُّ دونه ، حتى إذا قَصَرتْ عني وثاب إلى عقلي قال ابن أبي عتيق : ويلك يا عمرَ ! والله لقد فضحتها وهتكت عنها سترها ؛ أما والله لو قد كنت أخبرتني قبل الساعة لاحتلت لها ، ولوقيتها مما عرضتها له .

قلتُ : ويبك يا ابن أبي عتيق ! من تعني ؟ قال : من أعني ؟ وأنت مازلت منذ الساعة تهذي باسمها غير معجم ! إنها الثريا واليوم ميعادها ، ولقد مضى من الليل أكثره وما بقي منه إلا حشاشة هالك !

ووجم الرجل واعتراني من الهم ما حبب إلى الحي أن تكون خامرتني وساورتني حتى قضت علي ، وطفقتُ أنظر بعينيّ في بقايا الليل نظرة الثكلى ترى في حواشي الدُّجى طيف ولدها وواحدها ، وتمضي الساعات عليّ كأنما تطأني بأقدم غلاظ شداد لم تدع لي عضواً إلا رضَّته . وابن أبي عتيق يذهب ويجيء كأنما أصابه مسٌّ فهو يرميني بعينه صامتاً يتحزّنُ لما يرهبُ من فجاءات القدر بي وبها . ثم أقبل علي يقول : خبرني يا عمر أين واعدتها من دارك هذه ؟ فوالله لكأنما ألقى في سمعي لهباً يتضرَّمُ ، فلم أسمع ولم أبصر ودارت بي الأرض ، فما أدري بم أُجيب ، فلقد واعدتها منزلاً كنتُ أحتفي به لميعادها ، قد استودعته سري وسرها ، فما أدري ما فعل به أهل الدار ، وقد ربضتْ بي الحمى بمنأى عنه . ولا والله ما شعرت أن الفجر قد صدع حتى سمعت الأذان كأنه ينعَى إليّ بعض نفسي فما تماسكت أن أنتحبَ ، وابتدر إلى صاحبي يكفكف غَرْبَ أحزاني . وقال : خفض عليك يا عمر ، فإن هذا يهيضُك إلى ما بك . وما تدري لعل الله يحدث بعد عسر يسرا . قم إلى وضوئك أيها الرجل ، واستقبل بوجهك هذه البنية ، وادع الله جاهداً أن يستر ما هتكت ، فإنهن النساء لحمٌ على وضم إلا ما ذُبّ عنه

فما كدتُ أفرغُ من صلاتي حتى جاءت جاريةٌ صغيرةٌ تعدو قد أنزفَها الجري ، ورمتْ إليّ كتاباً في سَرَقَةٍ من حرير يفوح منها العطر ، وقالت : سيدتي تقول لك : في هذه شفاءٌ من داء . واستدارت وانطلقت تسعى . فنظرتُ وشممتُ ونشرت الحريرة المطوية عن كتاب مطوى طيّ السِّجلِّ ، وإذا فيه : « جئنا لميعادِك ، فإذا شبحٌ نائمٌ في بُرْدِك فرميتُ نفسي عليه أقبّله فانتبه وجعل يقول : اعْزُبي عني فلستُ بالفاسق أخزاكِ الله . ودفعني فعدوتُ أفرُّ بنفسي من فضيحة تنالني فيكَ . وما شعرتُ أنك محموم حتى أنبأتني بذلك أختي ، فويلي عليك وويلي منك يا عمر ! » . فألقيتُ الكتابَ إلى ابن أبي عتيق وأستعفي به أن يدبر منذ اليوم ما أتى به خَبْءُ الليالي ، فنظر إليّ بعينين زائغتين من سهر وسهاد وقال : والله يا عمر لكأني بك قد ركبتَ إلى بلائك وبلاء الثريّا حين قلتَ :

تشكّى الكميتُ الجرْيَ لمّا جهدتُه
وبيّن لو يستطيع أن يتكلما

وما أدري كيف أحتال لك في أمرٍ قد انفلتت من يديك

أعنّته ، فدع الأمر لله يدبره ، ووطن نفسك على الثقة ، ولا تجزع لبغية إن جاءتك ، والقَ من يلقاك بالفضيحة كأتم ما كنت بشاشةً ورضًى وسكينة ؛ فأنت خليق أن تنقذها مما ورطتها فيه . وإياك والتردد ، فإنه مدرجة النكبات . ولقد هددتك صَنَم اللسان فإن لم ينفعك اليوم لسانك فلا والله لا نفعك . قلت : جزاك الله عني خيراً يا ابن أبي عتيق ، ما ضرَّني كتماني دونك ما أكتم إلا اليوم ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . ويلي من نفسي ثم ويلي منها ! واعلم أنه ما يكربني أن يلقاني من أحتال له وأصرفه ، وإنما يكربني أمر الثريا وهي تقضي الساعات قد ألقى الهم في دمها ناره وفي فكرها ظلمته ، ولا والله ما أستطيع أن أحتال لرسول يلم بها فيقول لها بعض ما تسكن إليه

قال ابن أبي عتيق : فهلاّ حدثتني عنها يا عمر ؟ فلقد صحبتك ما صحبتك وما أدري من خبر الثريا وأمرها إلا ما أتسقّطه من حديث الناس . قلت : وما تبغي إلى ذلك ؟ أما كفاك ما تعرف من أمر سائرهن ؟ وإني لأراك كالمنهوم الذي لا يشبع ؛ فلو كنت مثلي لقلت عسى أن تكون لك في نفسك حاجة ، ولكن الله عافاك مما ابتلاني به ، فدع عنك الثريا وأخبارها . فورب السموات والأرض وما فيهن ما أمنت على سرها نفسي ، فكيف بي إذا بحت لك ؟ قال : إذن فصفها لي كيف تراها ؟ قلت : أما إنك على ذلك ، لشديد الحرص شديد الطمع . وما تبغي إلى امرأة من النساء تسمع من نعتها وحليتها وصفاتها ؟ لولا أن كنت اليوم شاهدي لما حدثتك بحرف . يقول الناس : ما فعل الله بابن أبي ربيعة ؟ ما زال يمد عينيه إلى كل غادية ورائحة حتى أفضى إلى الثريا ، فتعلق منها بنجم لا يناله وإن جَهِدَ . وإنها لعرضة ذلك جمالاً وتماماً ، وإني لخليق أن أفنى فيها نور عيني وقلبي . ويقول الناس : ما الثريا ؟ إن هي إلا امرأة دون من نعرف من النساء حسناً وبهاء . وقد والله كذبتهم أعينهم ، وإني لبصير بالنساء خبيرٌ بما فيهن ، ولئن كنت قد عشت تبيعاً للنساء أنقدهن نقد الصيرفي للدينار والدرهم فأنا أهل المرفة أحقّق جيادها وزيوفها بأنامل كالميزان لا يكذب عليها ناقص ولا وافٍ

ما يضيرك يا ابن أبي عتيق أن ترى الثريا أو لا تراها ، فإنك لا تراها بعيني ، وإنما أنت من الناس تضل عن جمالها حيث أهتدي إليه ، وتسألني كيف أراها ؟ فوالله إن رأيتها إلا ظننت أني لم أرها من قبل ، فهي تتجدد في عيني وفي قلبي مع كل طرفة عين ، ولئن نعتها لك فما أنعت منها إلا الذي أنت واجده حيث سِرْت من النساء : غادة كالغصن النضر يميد بها الصبا وسكر الشباب ، لم تربُ رَبْوَةَ القارعات ، ولم تجف جفوة البدينات ، ولم تضمر ضمور المهزولات ، ولم تُمسح مسحة الضئيلات ، ولم تقبض قبضة القصار القميئات ، فتمّ تمامها بضة هيفاء أملوداً ، خفاقة الحشا هضيمة الكشحين مهفهفة الخصر ، تتثنى من اللين كأنها سكرى تترنح . فلو ذهبت تمسها لمست منها نَعمة وليانا وامتلاء قد جدلت كلها جَدْل العصب ، فهي على بنانك لدنة تُرْعد من لُطفها واعتدالها . وانظر بعيني يا ابن أبي عتيق ، تُبصر لها نحراً كذَوْب الفضة البيضاء قد مسها الذهب ؛ فلا والله ما ملكت نفسي أن أعب من هذا الينبوع المتفجر إلا تُقًى لله أن أدنّسه بشفتين ظامئتين قد طالما جرى عليهما الكذب والشّعر . أما وجهها فكالدرة المصقولة لا يترقرق فيه ماء الشباب إلا حائراً لا يدري أين ينسكب إلا على نحرها الوضاء ، زينه أنف أشمُّ دقيق العرنين لطيف المارِنْ ؛ فإذا دنوت إليها فإنما تتنفس عليك من روضة معطارٍ أو خمرٍ معتقة ، فاذهب بنفسك أيها الرجل أن تزول عن مكانك كما يقول صاحبنا جميل :

فقام يجر عطفيه مُختـــاراً   وكان قريب عهد بالمهات

ودعْ عنك عينيها يا رجل ، فلو نظرتْ إليك نظرة لوجدتها تنفُذُ في عينيك تفيء لقلبك في أكنّته مساربَ الدم في أغوار جوفك ، ولتركتك كما تركتني أسير بعينين مغمضتين ذاهلتين إلا عما أضاءتْ لك في الحياة عيناها . فإذا دنتْ إليك فكن ما شئت إلا أن تكون حيا ذا إرادة تطيق أن تتصرف ، وذ

كل شيء إلا عطر أنفاسها وضياء وجهها ، وغمامةٌ تظلل روحك النشوى طائفة عليك بأطراف شعرها المهدَّل كحواشي الليل على جبين الفجر ، وخدٌ بنانك رخصاً مطرَّفاً كثمار العنّاب تغذوها يدٌ بضة بيضاء يحار فيها مثل ماء الصفا ، فلقد قبّلتها يوماً ظننت أن قد أطفأت بها غليلي فزادتني غُلّةً وصدًى ، فما نفعني في نار هـذه الحمى إلا ما لم أزلْ أجد من بردها وطيبها وعذوبتها على شفتي حتى اليوم . ولا والله إنْ رأيتُ مثلها امرأةً إذا حدثت ، فكأنما تسكب في روحي سرَّ الحياة يهمس عن شفتين رقيقتين ضامرتين كأن الدم فيهما مكفوف وراء غلالة من النعمة والشباب . فآه من الثريا ! لقد حجبت عني كل نجم كان يلوح لي في الدياجي يُلهمني أو يُغويني ... وَيْ ، ما دهاك أيها الرجل ؟

ورأيت ابن أبي عتيق يتخطاني بعينيه ينظر إلى الباب من ورائي ، قد انتُسِف وجْهه وغاض من الدم كأنما يرى هولاً هائلاً قد أوشك أن ينقض عليه ، وما كدت أرد الطرف حتى سمعت من يقول : السلام عليكما يا عمر ! وأنت يا ابن أبي عتيق مالك تنظر إليَّ كالمغشيِّ عليه لا ترفُّ منك عاملة ولا ساكنة ؟ وما بك يا أبا الخطاب ! أترى الحمى كانت منك على ميعاد ؟ لقد أقبلت أمس من سفري ، وكان الليل قد أوغل فتلقاني ولدك جوانٌ فأنبأني أن الحمى قد وردتك فأوْدعتْ عليك أياماً فنهكتك حتى خيفت عليك بُرَحاؤها . وأن ابن أبي عتيق جزاه الله عنا وعنك خيراً أبى إلا أن يتعهدك بمرضك حتى تبرأ وتستفيق ، وإني لأراك بارئاً يا أبا الخطاب .

فوالله لقد سكنتْ نفسي لما أتم كلامه وسكتَ ، وأدنى يده يجسُّني جسَّ المشفق . ورأيت ابن أبي عتيق يثوب كأنما كان في كرب يفثّه ويعصرُه ثم أرسله فعاد إليه الدم . فهـذا أخي الحارث (هو الحارث بن أبي ربيعة أخو عمر) سيد من سادات قريش شريفٌ كريم عفيفٌ ديِّنٌ ، ما رآه امرؤ إلا دخلته الرهبة له حتى تتعاظمه . فما زاده أن كانت أمه سوداء من حبش إلا رفعةً ومكاناً . ولقد كان عبد الملك بن مروان ينازع عبد الله ابن الزبير أمر الخلافة ، وكان ابن الزبير قد ولّى الحارث بعض الولايات ، فلما جاءه النبأ بولاية الحارث قال : أرسل عوفاً وقَـمَد ! ولا حُرٌّ بوادي عَوْف . فابتدر من المجلس يحيى بن الحكم وقال : ومن الحـارث يا أمير المؤمنين ؟ ابن السوداء ! فقال له عبد الملك : خسئتَ ، فوالله ما ولدتْ أمةٌ خيراً مما ولدت أمه !

ثم صرف الحارث وجهه إلى ابن أبي عتيق وهو يبتسم له وقال : أما زلت يا ابن أبي عتيق بحيث قال صاحبك فيما بلغني من شعره إذ يقول لك ؟

لا تلمني عتيقُ حسبي الذي بي … إنَّ بي يا عتيق ما قد كفاني
إنَّ بي داخلاً من الحب قد أبـلى … عظامي مكنونُه وبراني
لا تلمني وأنت زيَّنتها لي … أنت مثل الشيطان للانسان

فقال ابن أبي عتيق : هُديت الخير ، فوالله إن أخاك لشاعر يقذف بباطله ، ولقد وقعت في لسانه ولقيت من دواهيه . ثم نظر إليَّ الحارث وقال : أما وقد لقيتك بخير يا عمر ، فإني منصرف إلى وجهي ، وبالله إلا ما تقدمت إلى أهل بيتك أن يعدوا لي المنزل الذي نزلته بالأمس حتى أعود ، وإني أرى الريحان قد ذبل فمُرْهم أن يستبدلوا به ، وأن يطيِّبوا الفراش ويجمروه . وقل لطائف الليل أن لا يلم بنا ؛ فلسنا من حاجته ولا هو من حاجتنا . فما تمالكت أن قلت له : ويحك ! أفهو أنت ؟ قال : أجل هو أنا أيها الفاسق ! قلت : إذن فوالله لا تمسُّك النار أبداً وقد ألقت نفسها عليك وقبَّلتك . فقام مغضباً يفور وقال : أعزُبْ ، عليك وعليها لعنة الله !

وانطلق الحارث واستفقت من غشيَة الحب وما نزل بي من الغم لما فاتني من الثريا . وقال ابن أبي عتيق : قد والله أسأت فما تراني كنت أحدثك من جوف الليل أنهاك أن تجزع لبغتة إن جاءتك ، فوالله لشدَّ ما جزعت وخانتك نفسك وأرداك لسانك ! ولبئسما استقبلت به أخاك ! ولقد كنت أقول لك إن التردد مدرجة النكبات فإذا جرأة لسانك مَدرجَة إلى كل بلاء ، وإلا والله لا تفلح أبداً أيها الرجل

فلقد اضطرب عليَّ أمري حتى ما أدري ما أقول ، ثم سكتت

نفسى وقلت له : أفرخ روعك يا ابن أبي عتيق ، ولتعلمن اليوم دهاء عمر ، فأرسل فى طلب ابنتى « أمة الوهاب » والحق أنت الحارث فرده على . وانطلق ابن أبي عتيق ، ولم ألبث حتى جاءتنى أَمَةُ الوهاب فقلت لها : يا بنية ! أشعرت أن عمك الحارث قد نزل بنا الليلة ؟ قالت : كلا يا أَبَهْ ! قلت : إذن فانطلق إلى هذه الغرفة التى إلى جوارى وتباكى وانتحبى ما استطعت حتى أنهاك . ففعلت ، وجاء الحارث وابن أبي عتيق فقلت له : جعلت فداك ! مالك ولأمة الوهاب ابنتك ؟ أتتك مسلمة عليك فلعنتها وزجرتها وتهددتها ، وها هى تيك باكية . فقال : وإنها لهي ! قال : ومن تراها تكون ؟

فانكسر الحارث كأنما اقترف ذنباً لا يعفو الله عنه إلا رحمة من عنده ، وقال : فما بالك وما كنت تقول ؟ فقال ابن أبي عتيق : ذاك هذيان المحموم يا ابن أخى ، ولو أنت كنت الليلة إلى جانبه لسمعت من بوائق لسانه ما تصطك منه المسامع . وإنى لأظن الحيّ هى التى خيلت له حتى أنطقته ببعض تكاذيبه . قال الحارث : والله لشد ما يغمنى أن يدع عمر كل خير فى الدنيا ، وكل ثواب فى الآخرة ، وأن يحبط أعماله بما يسول له شيطان نفسه وشيطان شعره ، فيهتك عن الحرائر ما ستر الله . ولقد طالما نهيتك يا عمر عن قول الشعر فما زلت تأبى أن تقبل منى ، أتراك فاعلاً لو أعطيتك الساعة ألف دينار ذهباً على ألا تقول شعراً أبداً . قلت : قد رضيت ! قال : فهى منذ الساعة فى ملكك

قال عمر بن أبي ربيعة : فما أخذتها منه إلا لأهديها إلى الثريا عطراً ولؤلؤاً وثياباً من تحف اليمن . أما الشعر فوالله لا أتركه لأحد ، رضى الحارث عنى أو غضب .

محمود محمد شاكر

القضايا الكبرى في الإسلام

قتل الهرمزان

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

رُوِّع المسلمون بقتل عمر رضى الله عنه بيد فارسى أثيم يسمى فيروز ، ويكنى أبا لؤلؤة ، ووقف العالم ينتظر أثر هذا الحادث فى نفوس المسلمين من جهة الفرس الداخلين فى حكمهم . أيجعلونها قضية شخصية كسائر القضايا ، أم يتناولون بها غير القاتل من قومه ، فيقضون فيها بحكم القوة الذى كان يقضى به فى الجاهلية ، وتقوم به الحروب بين القبائل والشعوب ، ويخرجهم السلطان عن حكم القرآن فى قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) فلا فرق بين أمير وحقير ، ولا بين عربى وغيره من سائر الشعوب

وقد تفرعت عن هذه القضية قضية أشد منها امتحاناً للمسلمين فى الحكم الذى يأخذون به فيها ، فوقف العالم مرة ثانية ينتظر فيها حكمهم ، فهل يقضون بالعصبية التى كانوا يقضون بها فى الجاهلية ، أو يقضون بالعدل الذى لا يفرق بين القبائل والشعوب ، وتلك قضية قتل الهرمزان الذى رَوَّع المسلمين كما روعهم قتل عمر ، وأظلت به المدينة على أهلها ثلاثاً

خرج عمر بن الخطاب يوماً يطوف فى السوق ، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة — وكان نصرانياً — فقال : يا أمير المؤمنين ، أعْدِنى على المغيرة بن شعبة ، فإن علىَّ خراجاً كثيراً . فقال له عمر : وكم خراجك ؟ قال : درهمان فى كل يوم . فقال عمر : وإيش صناعتك ؟ قال : نجار ، نقاش ، حداد . فقال عمر : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال . قد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحاً تطحن بالريح فعلت . فقال : نعم . فقال عمر : فاعمل لى رحاً . فقال : لئن سلمت لأعملن لك رحاً يتحدث بها من بالمشرق والمغرب . ثم انصرف عنه . فقال عمر : لقد توعدنى العبد آنفاً . فلما كان بعد ثلاثة أيام خرج إلى صلاة الصبح ، وكان يوكل بالصفوف رجالاً ، فإذا استوت جاء هو فكبّر ، ودخل أبو لؤلؤة فى الناس وفى يده خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ، فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته ، وهى التى قتلته ، ثم خرج يريد الفرار فتبعه رجل من تيم فقتله وأخذ منه الخنجر ، ومضى ذلك المجرم الأثيم بسر فعلته ، ولو أنه بقى لأمكن أن يؤخذ منه اعتراف عن السبب الذى دفعه إليها ، وأن يُسأل هل الذى حمله عليها أن عمر لم يُعْدِه على المغيرة بن شعبة ، أو أنه أراد الانتقام لدولة الفرس التى أسقطها عمر ؟ وهل كان له فى ذلك شركاء ، أو لم يكن له شركاء فيه ؟

وقد شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمل أبى لؤلؤة وحده ، وأنه كان هناك أشخاص شركوا فى دم عمر ، ففتح باب التحقيق فى هذه القضية الغامضة ، وجاء عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق غداة طعن عمر : فقال : مررت على أبى لؤلؤة أمس ومعه جُفَيْنَة والهُرْمزان وهم نجىّ ؛ فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ، فانظروا بأى شىء قتل ؟ فجاءوا بالخنجر الذى ضرب به أبو لؤلؤة فإذا هو على الصفة التى وصفها عبد الرحمن بن أبى بكر

ولم يتقدم أحد بعد عبد الرحمن بشهادة تلقى ضوءاً على هذه القضية الغامضة . ولا شك أن شهادة عبد الرحمن إنما تثير شبهة فقط فى جفينة والهرمزان ، والشبهة لا تكفى فى إثبات جناية

من الجنايات ، لأن أمور الدماء أجل من أن تهدر بشبهة من الشبه ، بل إن الشبهة لا تكفي في إثبات حق في الدماء وغيرها ، ولا بد من دليل واضح تثبت به الحقوق ، وتبنى عليه الأحكام .

وقد سئل القماذبان بن الهرمزان عن أمر ذلك الخنجر فقال : كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض ، فمر فيروز (أبو لؤلؤة) بأبي ومعه خنجر له رأسان ، فتناوله منه وقال : ما تصنع بهذا في هـذه البلاد ؟ فقال : أُبسُّ به . فرآه عبد الرحمن بن أبي بكر ، فلما أصيب عمر قال : رأيت هذا مع الهرمزان دفعه إلى فيروز

فلما لم يجدوا في هذه القضية الغامضة غير تلك الشهادة طووا التحقيق فيها ، ولم يروا في هـذه الشهادة ما يدين جفينة والهرمزان ، وكان في طي التحقيق بهذا الشكل أكبر دلالة على سمو الإسلام ، لأنه أبى مع تلك الشهادة التي تثير شبهة قوية في أن قتل عمر كان بمؤامرة فارسية أن يحمل لشهوة الانتقام أثراً في حكمه ، وأن تأخذه عزة السلطان فيستهين بدم شعب خضع له ، ويجعلها مذبحة تشفي النفوس الثائرة لمقتل ذلك الخليفة الذي نشر لواءه في الخافقين

ولكن طي التحقيق بهذا الشكل لم يرض بعض آل عمر ، وكان ابنه عبيد الله لا يزال فتى يجري فيه دم الشباب ، ويعد من شجعان قريش وفرسانهم ، فخرج مشتملاً على السيف حتى أتى الهرمزان فقال : اصحبني ننظر إلى فرس لي . وكان الهرمزان بصيراً بالخيل ، فخرج بين يديه فعلاه عبيد الله بالسيف ، فلما وجد حرَّ السيف قال : لا إله إلا الله ، فقتله . ثم أتى جفينة وكان نصرانياً من أهل الحيرة ، أقدمه سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم بها الكتابة ، فلما أشرف له علاه بالسيف فضربه فصلَّب ما بين عينيه ، ثم أتى ابنة أبي لؤلؤة جارية صغيرة تدَّعي الإسلام فقتلها ، ثم أقبل بالسيف صَلْتاً في يده وهو يقول : والله لا أترك في المدينة سبياً إلا قتلته وغيرهم ، وكأنه يعرِّض بناس من المهاجرين ، فجعلوا يقولون له : ألق السيف ، فيأبى ويهابونه إلى أن أتى عمرو بن العاص فقال له : يا ابن أخي أعطني السيف . فأعطاه إياه ، ثم ثار إليه عثمان بن عفان فأخذ بناصيته حتى حجز الناس بينهما ، وأرسل صُهَيْب الرومي القائم مقام الخليفة من أتى به إليه ، فسجنه حتى يتم الاستخلاف وينظر في أمره

فلما تولى عثمان الخلافة جلس في المسجد لينظر في هـذه القضية التي وقف العالم ينظر ما يفعله الإسلام فيها ، فدعا بعبيد الله من سجنه ، ثم قال لجماعة المهاجرين والأنصار : أشيروا عليَّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق ، فنصب عليُّ ابن أبي طالب نفسه محامياً عن الهرمزان ومن قتل معه ، وقال لعثمان : أرى أن تقتل عبيد الله . وهو في هـذا يرى أن النص صريح في القصاص من القاتل ، ومتى كان هذا أمر النص وجب الحكم به ، ولا يصح أن يراعى معه شيء آخر ، ولا أن يُغَلَّب على حكمه ما يقترن بحادث القتل من مثل ما اقترن به في هـذا الحادث ، لأن أمر النص فوق كل شخص ، وحكمه يعلو على كل اعتبار ، وهو في هذا كمن يتمسك في عصرنا بألفاظ القوانين ، ولا يبيح العدول عنها في حال من الأحوال . وقد وضع علي بهذا أول حجر في أساس تشيع الفرس له

ونصب جماعة من المهاجرين أنفسهم للدفاع عن عبيد الله ، فقالوا في الدفاع عنه : قُتل عمر بالأمس وتريدون أن تُتبعوه ابنه اليوم ! أبْعَدَ الله الهرمزان وجفينة ! وكأني بهم يخالفون علياً في ذلك النظر إلى النص ، ويرون أنه قد يطرأ من الأحوال ما يجب معه التساهل في أمر النصوص ، وتغليب الاعتبارات التي تمنع من الأخذ بها ، فلا يجب أن يتقيد القاضي بها دائماً ، بل يجب أن يترك الأخذ بها وعدمه لتقديره واجتهاده ، ولحكم الأحوال التي تقترن بالحادث الذي يريد الحكم فيه

وكان عمرو بن العاص ممن نصب نفسه للدفاع عن عبيد الله ، وقد ذهب فيه مذهباً غريباً يخلصه من القصاص ، ولا يكون فيه عنده خروج على نص الشرع في قتل العمد ، فقال لعثمان : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعفاك أن يكون هـذا الأمر ولك على الناس من سلطان ، إنما كان هـذا الأمر ولا سلطان لك ، فاصفح عنه يا أمير المؤمنين . وعمرو يذهب في هذا كما ذكر ابن حزم

إلى إهدار القوَد عمن قتل فى الجماعة بين موت إمام وولاية آخر ، وهو مذهب غريب لا يصح الأخذ به ، وإلا انتظر الناس ذلك الظرف فاستباحوا فيه الدماء ، لأنهم يرون أنه لا ينالهم فيه قصاص . وانتهت بدفاع عمرو مرحلة الدفاع فى القضية ، وهو دفاع يدل على أن الصحابة كانوا يتمتعون بقسط وافر من حرية الاجتهاد ، وأنهم كانوا لا يقفون جامدين أمام دلالة النص إذا حزب الأمر ، واقتضى مرونة تحل ما يوقعهم فيه من إشكال . وقد تشعب الخلاف بينهم فى دفاعهم حتى بلغ أقصى ما يبلغه خلاف ، فلم يحمل أحداً منهم على الطعن فى دين الآخر ، ولم يرمه بالإلحاد الذى نترامى به فى عصرنا فى كل خلاف يحصل بيننا

ثم جاءت مرحلة الحكم فقال عثمان : أنا ولى الهرمزان وجفينة والجارية ، وقد جعلتها دية . وفى رواية أنه قال لعلى حينما قال له اقتل عبيد الله : كيف أقتل رجلاً قتل أبوه أمس ، لا أفعل . ولكن هذا رجل من أهل الأرض ، وأنا وليه أعفو عنه وأؤدى ديته . وقد اختلف العلماء فى توجيه هذا الحكم الذى جاء مخالفاً لنص القصاص ، فقال صاحب البدائع : أراد بقوله : أعفو عنه وأؤدى ديته ، الصلح على الدية . وللحاكم أن يصالح على الدية إلا أنه لا يملك العفو ، لأن القصاص حق المسلمين بدليل أن ميراثه لهم وأن الحاكم نائب عنهم فى الإقامة . وفى العفو إسقاط حقهم أصلاً ، وهذا لا يجوز . وله أن يصالح على الدية كما فعل عثمان رضى الله عنه . وذكر ابن حزم أن عثمان أخذ فى ذلك بما ذهب إليه عمرو فى دفاعه من إهدار القوَد عمن قتل فى الجماعة بين موت إمام وولاية آخر . وقيل إن عثمان لم يحكم بذلك إلا بعد أن دعا القماذبان بن الهرمزان فأمكنه من عبيد الله ثم قال له : يا بُنى ! هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به منا ، فاذهب فاقتله . فخرج به وما فى الأرض أحد إلا معه ؛ إلا أنهم يطلبون إليه فيه ، فقال لهم : إلى قتله ؟ قالوا نعم ، وسبّوا عبيد الله . فقال : أفلكم أن تمنعوه ؟ قالوا : لا ؛ وسبّوه . فتركه لله ولهم ؛ فاحتملوه حتى بلغوا به المنزل على رؤوسهم وأكُفّهم . وقد حكم ابن حجر بضعف هذا الخبر ، لأن علياً استمر حريصاً على أن يقتله بالهرمزان . وقد قالوا إنه هرب لما ولى الخلافة إلى الشام فكان مع معاوية إلى أن قُتل معه بصفّين . وإنى أرى أن هذا لا يقطع بضعف هذا الخبر ، لأنه يجوز أن علياً رأى أن القماذبان قد حمل من الناس على هذا العفو ، على أنى أستبعد أن يستمر على حريصاً على قتل عبيد الله بعد حكم عثمان بذلك ؛ فلكل حكم قداسته ، وعلىّ أكبر من أن يستهين بالأحكام إلى هذا الحد . ولا أنكر مع هذا أنه لم يكن راضياً عنه ، وأنه كان هناك فريق من الصحابة يشاركه فى عدم الرضا به ، ومن ذلك الفريق زياد ابن لَبيد البياضى ، وكان إذا رأى عبيد الله ينشده :

ألا يا عبيد الله مالك مهربٌ ... ولا ملجأ من ابن أرْوى ولا خَفَرْ

أصبت دماً والله فى غير حِلّه ... حراماً وقتل الهرمزانِ له خطر

على غير شىء غير أن قال قائل ... أتتهمون الهرمزان على عُمر

فقال سفيهٌ والحوادث جمةٌ ... نعم أتهمُه قد أشار وقد أمَر

وكان سلاح العبد فى جوف بيته ... يقلّبها والأمر بالأمر يعتبرْ

فشكاه عبيد الله إلى عثمان فدعا به فنهاه ، فقال فى عثمان :

أبا عمرو عبيد الله رهنٌ ... فلا تشكك بقتل الهرمزان

فإنك إن غفرتَ الجُرْم عنه ... وأسباب الخطا فرسا رهان

أتعفو إذ عفوت بغير حقٍّ ... فمالك بالذى تحكى يدان

فدعا به عثمان ثانياً فنهاه وشذّبه ، وكان حقيقاً بما فعل عثمان به لأن الطعن فى الأحكام بهذا الشكل يدعو إلى الفوضى ، والقاضى إذا حكم باجتهاده كان لحكمه قداسته كائناً ما كان حكمه .

عبد المتعال الصعيدى

من روائع الرسول

للأستاذ قدري حافظ طوقان

يمر الزمن وتزداد عظمة الرسول وضوحاً وجلاء، وكلما تعمقنا في دراسة روائعه وجوامع كلمه تجلى صفاء المعنى وسمو المرمى والحكمة الزاخرة والحق المبين

وحين نستعرض بعض روائعه نجتلي محاسن أغراسها، ونمتع النفس بنفائس أزهارها، ونغذي الروح بما فيها من حكمة وخير وجمال — أقول حين نستعرض هذه نجد أن من الأحاديث ما يعبر أروع تعبير عن حقيقة الظواهر الكونية وعن القوانين الطبيعية التي تسيطر على هذا العالم، فهي وإن قلت عدد كلمات، فقد حوت من الحكم والمعاني ما يبهر العقل والقلب والعاطفة؛ يهتدي بها الضال في الفلوات، ويرنو إليها الخابط في الظلمات، تنير الفكر وتهدي إلى الغاية، كما ترشد إلى الحقيقة الخالدة. فيها الهدى، وفيها الموعظة، وفيها العبرة.

كان إبراهيم قرة عين الرسول يُسرُّ بمداعبته ويطمئن إلى رؤيته، يرمقه بعطف ليس بعده عطف، ويخلع عليه ألواناً من الحب والحنان تتمثل فيها الرحمة الأبوية في أقوى صورها، والعاطفة الإنسانية في أسمى معانيها.

لقد فقد محمد أبناءه وبناته ولم يبق له غير فاطمة وإبراهيم. لهذا لا عجب إذا طفح بشراً عند مشاهدتهما، وامتلأ غبطة وسروراً في لقياهما، ولكن شاءت الحكمة الإلهية أن لا تطول تلك الغبطة وذلك السرور، وأن يفجع النبي في ولده إبراهيم، وهنا (انطفأ بموته ذلك الذي تفتحت له نفس زمنا وزادت عينا محمد تهتانا وهو يقول: يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك بأشد من هذا ...)

كسفت الشمس في يوم الوفاة، ورأى المسلمون في ذلك كرامة. فقال بعضهم: لقد انكسفت الشمس لموته. وهم على ما يظهر على حق فيما يقولون؛ فلقد وافق موت إبراهيم كسوف الشمس؛ فلماذا لا يرى بعضهم في هذا معجزة؟

أليس الله بقادر على كل شيء؟

أليس الرسول كريماً عند مولاه؟

لقد حسبوا أن الله أراد أن يكون في هذه الظاهرة العزاء والسلوى لنبيه الكريم ...

وهنا ... يتجلى في محمد — على فرط حبه لإبراهيم وشدة حزنه عليه وجزعه لموته — إخلاصه للرسالة، ويرى في القول خروجاً على الدعوة التي بعث من أجلها، ولا يرضى أن يرى الناس في هذا معجزة فينسى أن إبراهيم، ولده وينسى أن إبراهيم كان رجاءه وأمله، وينسى أن إبراهيم مات ولما تتفتح نفسه له... وينسى فجيعته وهذا الهول الذي نزل به، ويقف خطيباً ويقول: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته؛ فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي)

صلى الله عليك ... وهل بعد هذا من عظمة؟ ففي أحرج المواقف، في أدقها، لم تنس رسالتك، ولم تغفل عن الحق الذي أتيت به، وأبيت إلا أن تكون مخلصاً لدعوتك ولحقائق الوجود، وجئت بدستور كوني وضع حداً لسخافات المنجمين وأقوالهم، ولاعتقادات الناس في الظواهر الطبيعية والكونية، وبأن ما يجري في الكون لا يتقيد بأحد، ولا يسير إرضاء لبشر، بل إن هناك قوانين تسيرها، وأنظمة تسيطر على حركاتها، أوجدها الخالق منذ الأزل لا تحيد عن الطريق الذي رسمها، وقد نزهها عن الشذوذ والتناقض

ومن يبحث فى هذا الكون ويسعَ فى الوقوف على أنظمته والقوانين التى تسيطر عليه يجد أن لا شىء فيه إلا يسير ضمن دائرة من القوانين لا يتعداها ، وأن ما يسيطر على أصغر أجزاء المادة يسيطر على أكبرها ، وأن الكون متسق فى نظامه ، متناسق فى أجزائه، متشابه فى تركيبه، وأن النظام الموجود فى السيارات والشموس هو بعينه فى الجوهر الفرد، فى الكهارب وفى النوايا . ومن الغريب أن الإنسان كلما تقدم فى الكشف عن قوانين الطبيعة وكلما حاول تفهم أسرارها ، رأى نفسه أمام أسئلة عديدة لا يستطيع الإجابة عنها ، وقد زاد اعتقاداً بضآلته وجهله، وبأنه لم يكشف شيئاً، وأنه لا يزال فى فجر يقظته العقلية وفى مراحل التفكير الأولى فى الوقوف على أسرار الوجود . وكلما قلب بصره فى هذا الفضاء وزاد معرفة به شعر بأن الوداعة تقترب منه ، وأن من الواجب عليه أن يكون فى الذروة من التواضع وسمو الخلق . ولا عجب ، فحسبه أن يعرف أن الأرض إزاء الأجرام السماوية التى لا عد لها أشكالاً وأنواعاً كذروة من الغبار سائرة إلى الفناء لا تأبه للحياة ... ولقد ربط مبدع هذا الكون أجزاءه بعضها ببعض ربطاً وثيقاً لا يستغنى أحدها عن الآخر ولا يستطيعَ أى جزء أن يسير دون غيره ، فالإنسان مرتبط بالإنسان، وهذه كرته التى يعيش عليها وما فيها من حيوان ونبات وجماد لها علاقة مباشرة وغير مباشرة مع غيرها من الكواكب والنجوم ، فلولا الشمس لما عاش النبات والحيوان والإنسان ، ولولا القمر لاختل نظام التجارة ، ولولا الكواكب والنجوم وجذب بعضها لبعض لما استطاع أن يحفظ كل نجم أو كوكب مركزه فى هذا الوجود ولسادت الفوضى وعم البلاء

وعلى هذا فالعالم مترابطة أجزاؤه تسيطر عليها أنظمة وتتولاها قوانين لا تتعداها ولا تشذ عنها : والذى لا ريب فيه أن هذا الكون لم يوجد من تلقاء نفسه إذ لو كان كذلك لما رأينا فيه هذا النظام وهذا التنسيق . بل إن هناك قوة « خارقة » منسقة منظمة لا يحيط بها عقلنا ، بل هى تحيط بنا وبهذا الوجود من جميع نواحيه فلا تتحرك هباءة فى الأرض والسماء من جماد أو نبات أو حيوان ، ولا فلك ولا نجم ولا كوكب إلا والله هو محركها والمسير لها فى دائرة من النواميس تشهد على عظمته وحكمته وبديع أمره فى خلقه ، وتنطق بكمال علمه ونفاذ مشيئته ، وتدل على قدرته وجلاله وكبريائه . ومهمتنا نحن البشر أن نزيد معارفنا عن هذه النواميس ونبحث فى أصولها . وكلما زدنا معرفة بها زدنا اعتقاداً بقدرة الله الخارقة المنظمة وإيماناً بقوة إبداعه ، وظهر لنا بجلاء أن هذا الكون لم يخلق باطلاً

هذا الاعتقاد وهذا الإيمان ، إذا رسخا عن طريق الدرس والبحث والتفكير فى آيات الله فإنهما يسموان بالإنسان إلى عالم أسمى من عالمنا ، وفى هذا لذة روحية ومتاع فكرى ليس بعدها لذة أو متاع . وهذا ما جعل الرسول الفكر يقول عند حدوث الظواهر الكونية : اذكروا الله وتفكروا فى آلائه وعجائب صنعه ، ففى هذا آيات لأولى الألباب ، وفى هذا عبادة هى أسمى العبادات وأفضلها

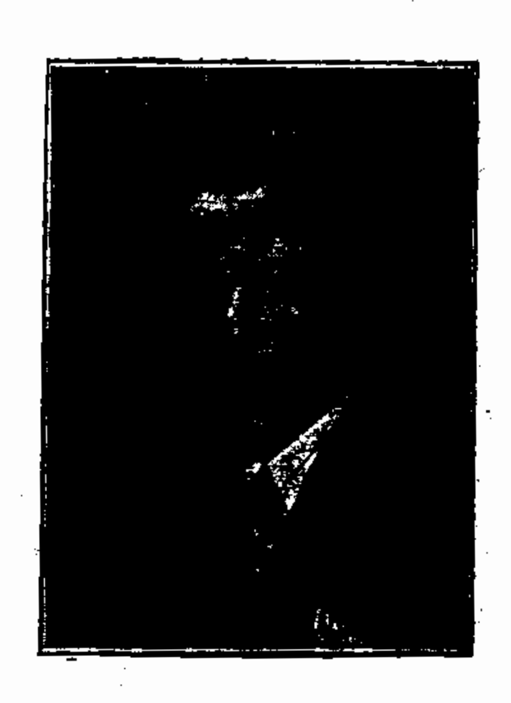
« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات الأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك »

(نابلس) قدرى حافظ طوقان

حكم فى المنمة ٣٤٨ مكررة بولاق سنة ١٩٤١ بحرم حافظ عبد السلام ٢٠٠ قرش لامتناعه من بيع بترول بالسعر المحدد

تحية الهجرة

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن



يا دياراً طيب الله ثراها ... طلع الحق عليها فهداها
إنه النور الذى أخرجها ... من غَشَى الظُّلمة واجتاح دُجاها
لم يُرِدْ مجداً ولم يسع إلى ... زُخْرُفِ الدنيا ولم يبتغ جاها
لم يرد فى الحق إلا غايةً ... لا . ولم يدع مع الله إلاها
السفاهات عليه اجتمعت ... فمضى لم يخش فى الحق سفاها
والضلالات عليه ائتمرتْ ... إنها لم تثنه ... لكن ثناها
غُلِبَ الشِّركُ على دولته ... والهوى قُوِّضَ والباطل شاها

أيها الداعى إلى السِّلم أعِنْ ... أمماً قد ضاع فى السلم رجاها
نزغ الشيطان فيهم فمشى ... كل شيطان بأرض يتباهى
ملأوا أشداقهم سلماً كما ... تملأ الضفدع بالأصوات فاها
مُلتوِى الغايات... لم نعرف لهم ... وِجْهَةً تُبْغَى ولم ندر اتجاها
كل يوم جشع لا ينتهى ... كل حين طمع لا يتناهى ...

أيها الهادم أصنامَ منًى ... عادت اليومَ كما نحن نراها
أين منها « اللاتُ » فى طاغوتها ... والقرابينُ تُضَحَّى لثراها ؟
كل أرض بدلت من ربها ... صنماً يمتص بالبَغْى دماها
ساقها للحرب شعواء وقد ... دارت الحرب على قطب رحاها
دولة الأصنام قد ولت فمن ... عاد بالدنيا قروناً فدعاها ؟ ؟
نَزَّهَ الله عن الشرك ... لقد ... تَخِذَ الناس من الناس إلاها

أيها الخارج من مكة لم ... يلق منها العطف أو يأمن أذاها
أهلُكَ الأدنون عادَوْكَ وقد ... تجد النفس من القربى عِداها
هذه أرضك تأرقت لكى ... تنشد الأمن على أرض سواها
هكذا الأحرار لا تقعدهم ... جذوة الظلم ولا لفح لظاها
لا تضيق الأرض فى أعينهم ... عن أمانى النفس أو درك مداها
كل أرض ظلتهم وطن ... ما هى الأوطان إن ضاع حماها ؟

هِجْرَةٌ لله لم تبغ بها ... كلأً رطباً وأرضاً ومياها
هذه مكة قد غَصَّتْ بها ... أعينُ القربى وآذتك يداها
أجمعوا ـ والله أقوام يداً ـ ... وعلَوْا ـ والحق أعلام جباها
فإذا الباطل أعيا أمره ... وإذا الأصنام قد خارت قواها
لم تكن إلا رؤًى خادعةً ... طلع الصبح عليها فمحاها ...

اسألوا الإسلام عن دولته ... من أشاع السلم فيها من بناها ؟
من على القوة أرسى أرضها ... وعلى العزة قد أعلى سماها ؟
قرشى من بنى هاشم ما ... دل بالسلطان أو بالحكم تاها
مهد الأمر لدنيا أقبلت ... وزمان ببنى قحطان باهى ...
فتحوا الأرض فما غلوا يداً ... سفهاً منهم ولا كفّوا شفاها

على عتبة رسول الله

للشاعر التركى إبراهيم صبرى
للأستاذ عثمان على عسل

هذا مقام أحمد محمود المجتبى ، هذا هو حب الله قد تجسد ترابا وإنه لكحل للعيون . ألا فلتحمل أيها القلم قلبي إليه وقطعه إربا إربا وعلق به قلادة منه لتكون بلسماً لجراحه

قبّل ثراه ساجداً وابسط تضرعى وابتهالى فههنا حرم سيد المرسلين باب المصطفى

* * *

بشر الأنبياء بالحياة فى الآخرة غير أنك يارسول الله أسبغت على الدنيا حياة أيضاً

هدمت عصور الجهل وحكمت على الظلم بالهلاك

فأنت عطية من الله للأحرار يارسول الله . فتاريخ البشر لم يسجل حدثاً أكبر شأناً من رسالتك ، فمن ذلك اليوم كان التوحيد لله وحده

حين أستمع إلى دعوات التكبير التى تنبعث من أغوار العصور الغابرة يستولى على جنانى الدوار ويخر مع سجودى على الأرض فى استغراق من الحيرة

وحينما أعود بأفكارى القهقرى إلى أسلافى وأرسل خيالى إلى هؤلاء الصحابة والأشراف الذين دانت لهم أمصار الأرض أتمثل « يا محمد » هذا النداء الذى يتردد فى صلوات أرواح لا تحصي

وحينئذ يذكرنى الذل الذى ترسف فيه شعوب الإسلام بذلك الماضى المجيد الذى أصبح تاريخاً ؛ فتنزف روحى دماً ويستحيل إحساسي وأفكارى ألماً . لم يبق للاسلام من ذلك المهد الجليل سوى هذه القفار الجرداء

وإنى لأبحث عن حقوق الإنسان التى أشرقت فى المغرب ثم أشعلت النار فى المشرق ثم غابت ؛ فلا أجد لبزوغها أثراً فى هذه الفيافى التى لا يسمع للصوت فيها صدى . لا رجاء فى هذه النظم التى سنتها البشرية ... وليس من نفاق أصدق من الحقوق المزعومة والحقائق الباطلة

أما أنا فقد فتنت بحق من فيض هداك ، ومن احتراق لليلاه أمزق ثيابى كالمجنون

ليلاى ليس من شيمة حبها ظلم فحبها للجميع سواء

والذين وقعوا فى شراك غرامها لا يشعرون بالندامة ، لأن هناك أمامهم يوم القيامة

وكأنما القرآن رسالة غرام تنثر السلوى للعشاق الماميد

ألا كيف يشرب ذو الحجى خمرة الذهول من يد الساقى

ضمنوا حرية الفكر وما ... ضيقوا يوماً على الناس مداها
كان للرأى لديهم ساحة ... كالميادين وأرجاء وَغَاها
أسألوا بغداد عما شهدت ... من جدال سطرته صفحتاها
الثقافات لديهم مثلت ... بعدما ألقت من السير عصاها...

يا دياراً ألّفتها وَحْدَةٌ ... تسع الدنيا جميعاً فى جاها
بين وادى النيل فى رقته ... وَرُبَى لُبنانَ فى شُمّ ذُرَاها
والهضاب الخضر من أندلس ... والعراقين وأعلام قراها
هذه الأوطان من فرقها ... وبأحداث الليالى من رماها
لم يعد فيها سوى مئذنة ... ضاع فى الغارات مرجوع صداها...
فمتى يرجع يوماً مجدها ... وَمَتَى يُشرق بالشمس ضحاها ؟
وَمَتَى يهتف فيها هاتف ... بالمودات وأنغام لُغاها ؟؟؟

محمد عبد الغنى حسن

ما دام الصحو من سكر الدنيا هو النوم

سكبت من مآقى جرعات وانصرفت من مجلس لهوى على حداد . وبودى أن أتناول كأس الوصال من يد ليلاى لأنقع به صداى ...

أنت لحب ليلى رسول تكرمت فبعثتك فى تواضع ليس من طبيعة المشوق ، ومن أنا يا رسول الله حتى تحمل إلى الرسالة ؟ لهذا جئت إليك متضرعاً فى خشوع وخضوع

أنا شاعر صغير من شعراء الروم هاجرت من ديارى وقد تحجر براحى فضممته إلى أحشائى ، كما يشد الساغب الحجر على بطنه ليمسك رمقه

ولقد تحطم خيالى من فيض الإلهام الذى انهال عليه من مقام المصطفى ولا يدركه عقل ... ومن ذكريات حبيب الله التى لا أدرى كيف استوعبها الثرى

وقفت مطرق الجبين حاسر الصدر باسطاً يدى أسأل الرحمة ومنتظراً منك المونة على باب سخائك

وسأستمد الجرأة من شأنك الذى رفعه الله بقسمه « لعمرك » كما ألتمس من شفاعتك الرحمة والهداية لأمتك العاصية ما دامت قصيدتى ستمضى إلى الأبد فى تقبيل تراب روضتك الطاهر .

معربها
عزاده على عسل